الفصل الثانى

عصر التقليد

(١) فى النثر

الصورة العامة للنثر العربى :

المواد النثرية التى صحت لنا عن النثر الجاهلى لا تهيئ لنا سبيلاً إلى دراستها ، وإن كان بعضُ الباحثين قد انتهى إلى القطع بوجود خطابة وكتابة فنية « تشمل القصص المكتوب كما تشمل الرسائل الأدبية المحبرة ، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة » . ومن جانب آخر كان ثمة كتابةٌ « لأغراض سياسية وتجارية » وأمثال أكثر العرب من ضربها وأسجاع مال الكهان إلى اصطناعها فى كلامهم[١] .

وليس شك فى أن ما نستطيع الاطمئنان إليه فى كل ذلك هو الأمثال : لطواعية تواترها بصورتها التى قيلت فيها . ولكثرة الذين تجرَّدوا لجمعها — وكانوا فى البصرة من العلماء الكبار — كصحار العبدى وأبى فَيْد مؤرج بن عمرو السدوسى[٢] وأبى عبيدة والأصمعى . وأما الأسجاع الكهانية فهى إن كانت تدلّ على ما كان للجاهليين من أسلوب مسجَّع فإنها لا تعطى خطوطًا عامة للنثر الجاهلى . أولاً لقصورها على لون مُعَيَّن من الخطابة الدينية ، وثانيًا لأن النبىَّ كان قد نهى عن روايتها وتقليد صياغتها ! رُوِى أنَّ أحدهم وقد أمر أن يَدِىَ جنينًا قال : يا رسولَ الله أرأيت مَنْ لا شربَ ولا أكل ، ولا

---

(١) شوقى ضيف فى الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٣ ، ٥ (ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦)

(٢) لهذا الراوية كتاب « الأمثال » وصلت منه نسخة كتبت فى القرن الخامس ، وهذه النسخة محفوظة فى الأسكوريال تحت رقم ١٧٠٥ من مخطوطات الجامعة العربية .

صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك يُطَلّ ؟ فقال الرسول : أسجعاً كسجع الجاهلية[١]. ولم يكن معنى ذلك أن يحرّم اصطناعُ تلك الخاصة الأصلية فى العبارة العربية ، فإن الجاحظ قد لحظ أن الخطباء كانت تتكلم عند الخلفاء الراشدين فيكون فى كلامهم سجع لا يُنْهَوْنَ عنه[٢].

ونستطيع من هنا أن نزعم أن كلام العرب قبل أن تعرفه البصرة كان — بناء على ماذكرتُ — شديدَ الإيجاز كثيرَ الإيماء ، فيه تقسيم وفيه تنغيم ، ويمتاز بمتانة السبْك وفخامة اللفظ .

ولاحاجة بنا إلى أن نلتمس النصوص ، فهى لاتعنينا هنا بقدر مايعنينا أن نعرف هؤلاء الذين حملوا النثر إلى البصرة ، نعرف هؤلاء من أقوالهم ومن صياغة هذه الأقوال . نعرفهم فى لغة تخاطبهم حين لايصدرون عن فنية مقصودة . ونعرفهم فى اللغة التى يقصدون تحبيرها ، وأخيراً نعرفهم وهم يخطبون ويعظون ويقصون ويبيعون ويشترون !

على أنه يجب أن يحسب حساب القرآن الكريم وكلام رسول الله فى تكييف النثر الإسلامى ، وكلا الأثرين له شخصيته ، وإن لم يخرجا عن طابع الأسلوب العربى بصفة عامة ! ولقد استطاعا أن يصوغا عبارات العرب فى عهدهم الجديد فى أسلوب غير معقد ولكنه محبوك يميل إلى التلميح ، وقد يصطنع الإشارة أحياناً ، كما قد يصطنع السجع فى أحوال خاصة[٣] .

وهنا أقدِّمُ الخطابة أو هكذا ينبغى أن أفعل ، ولن يطول بنا الأمر حتى

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٩٤ ، وفى صحيح مسلم باختلاف : هذا من إخوان الكهان ، وأخرى أسجع كسجع الأعراب ؟ (٢ : ٣٠ ط القاهرة ١٢٩٠) وفى مسند أحمد بن حنبل حديث رقم ٧٦٨٩ بالجزء الرابع عشر صور أخرى للحديث (ط . دار المعارف بمصر ١٩٥٥) واستهل من الإهلال وهو رفع الصوت ، واستهلال الصبى رفع صوته عند الولادة ، وقوله يطل من الطل أى هدر الدم ، وثمة روايات بالفعل « بطل » من باطل بدلا من « يطل »

(٢) البيان والتبيين ١ : ١٩٥

(٣) فى البصرة قال ابن عباس : إياك والسجع فى الدعاء (نهاية الأرب ٥ : ٢٨٥) ولكنه كان يسجع ، وقد روى أنه لما مدح من قبل ابن مرداس البصرى قال له : لا أعطى من يعصى الرحمان ويطيع الشيطان ويقول البهتان (البيان ١ : ١٩٢)

نرى هذه الخطابة قد أصبحت فى البصرة معرضاً للفصاحة واعتساف الغريب . فإذا عرضتُ للكتابة لا أملك إلا أن أتتبع الجهشيارى ؛ فلقد قرر أن الخلفاء اعتادوا أن يتخذوا كُتَّاباً حتى قبل أن يُنْشَأ « ديوان الرسائل » الذى وليه بعض العرب[١]، وانَّسقَ ذلك مع تأليف صُحار العبدىّ وزياد بن أبيه فى الأمثال ومثالب العرب[٢]، وكان عَبيد بن شَرِيَة ووهب بن منبِّه — فى دمشق — قد وضعا كتابيهما المشهورين فى أخبار اليمن وملوكها[٣]. وباستثناء كتاب صحار العبدى « الأمثال» نلحظ أن أغلب كتابات هذه المرحلة كان تاريخيًّا، وعلى الرغم من أن هذه الكتابات حُرِّفَتْ وشُوِّهَتْ — على مانرى فى كتابى عَبيد ووهب — فإن هذا لايمنع من أن أقول إن الكتابة — سياسية كانت أو تاريخية أو رسائل — كانت تخضع للأناة المجوَّدة المثيرة ، واشترك فى هذه الفترة المبكرة قوم من الأعاجم ولاسيما الفرس فى الكتابة فلانكاد نصل إلى عصر هشام حتى نجد على رأس « ديوان الرسائل » سالما مولى الخليفة ، ويرى شوقى ضيف أن الكتابة بصفة عامة « ارتفعت تحت أيدى هؤلاء الكتاب الرسميين . . كتَّاب الدواوين ، إذ كانوا يحترفون مهنة الكتابة ، وكانوا لايستطيعون أن يلوا هذا العمل ويصبحوا موظفين فى الديوان إلا إذا أظهروا تفنناً وابتكاراً وبلاغة وبياناً[٤]» .

والآن . . وبعد هذا العرض المتعجَّل أقول إننا لا نستطيع أن نفهم نثر البصرة فى عصر التقليد إلا إذا عرضنا للخطابة على حدَة ثم للقصص الذى نمت

---

(١) الوزراء والكتاب ٢٤ ، ٣٨ ، ٤٠ وقد روى الجهشيارى أنه كان بالبصرة ديوانان أحدهما بالعربية والثانى بالفارسية

(٢) الفهرست ١٣١ ، ١٣٢

(٣) الكتابان مطبوعان فى مجلد واحد بحيدر آباد الدكن سنة ١٩٤٧. أما عبيد فى اسمه ابن سرية وابن سارية ، وقد وفد على معاوية وكان أدرك النبى ولم يسمع منه شيئاً ، ويعد مرجعاً فى أخبار العرب والعجم المتقدمة ، وقيل إنه مات فى أيام عبد الملك بن مروان. وأما وهب بن منبه فهو من خيار التابعين ، ثقة صدوق كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات ، مات وهو على قضاء صنعاء سنة ١١٤ — راجع معجم الأدباء ٥ : ١٠ ، ٧ : ٢٣٢ (ط . هندية)

(٤) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٣٤

فى أحضانه « شعبيات » المصر ، وأخيراً للكتابة التى اتصلت من بعض وجوهها بهذا القصص .

الخطابة :

قلت قبلُ إن الحياةَ الأدبية فى البصرة بُدِئتْ بالخطابة ، وأقول هنا إنها لم تخرج فى ذلك عماً حدث فى الكوفة وعما كان يحدث فى دمشق وغيرها من الأمصار التى خضعت للإسلام . ولعل الأبوابَ الطويلة التى عقدها الجاحظ عن الخطابة والخطباء تقفنا على عمق تأثير هذا الفن فى النفوس ، وعلى مدى اهتمام الناس به .

على أنه ينبغى أن تكون الخطابةُ خارج البصرة موضوعًا آخر لا يدخل فى هذا البحث ؛ فللبصرةِ حياةٌ كشفت عنها الخطابةُ التى دوّتْ آفاقُها بها ، ونستطيع عن طريق هذا الفن أن نلمح كيف كانت تسير المدينة من حال إلى حال . وقد لا يُتاح لنا أن نتعمق ذلك إلا إذا ناقشنا شكل هذا الفنِّ ومحتواه ، وفى هذه الحال يجب أن نسلم بأنَّ الدراسة قد لا تكون أكثر من رصْد لحالات عامة ، وقد تكون هذه الحالات شبيهة بحالات أخرى ليست بصرية ، وهل نسينا ما قلناه عن اتصال البصرة — أدبيًّا — بغيرها من المدن ؟

ولقد رأينا البصرة تستفتح عهدها الخطابىَّ بكلام دوّى به مسجدُ البصرة الجامع . وكان معنى ذلك أن الخطابة ارتبطت بالدين بَدِيًّا . وأنها لم تنفصل عنه ما كانت تعرض لمشكلاتٍ صدَرَ بها الأمويون عن أهداف جعلوها دينية !

فإذا استفتينا الجاحظَ أدْلى بأقوال ضخام وخَطَّطَ بوضوحٍ للخطابة فى البصرة ، فقال : « كان سوّار بن عبدالله أوّلَ تميمى خطب على منبر البصرة[1] » وهذا لا يتعارض مع روايته التى تقرر أن عبد الله بن عباس كان أوّل من عُرِفَ

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٩٧

بالبصرة بارتقائه منبر الجامع وتفسيره « البقرة وآل عمران » حرفًا حرفًا[١] ؛ فالرواية الأولى عن خطباء تميم . وقد تولَّت هذه القبيلةُ قيادةَ فن الخطابة طوالَ العصر العربى الخالص .

ويبرز منذ عهد مبكر الأحنف بن قيس الذى توفى سنة ٦٩ هـ ، ويعقبه الحسن البصرى ، وكان الاثنان من أهل اللسن واللقن ، ويعرفان جهورة الكلام وتمطيطه . ولقد مهَّدا لفحليْن من تميم هما خالد بن صفوان وشبيب بن شيْبة ، وكانا بدورهما لا يعتريهما — فى مخاطبتهم العامة والخاصة — شىء من البُهْر والارتعاش ! ويبدو من تاريخ هؤلاء الخطباء جميعًا أنهم كانوا على اتصال وثيق بثقافات العرب من مذاكرة القَصص والأخبار ومدارسة الشعر والآثار . وقيل إن رجلاً من العامة لم يُعْجِبْهُ شىءٌ من ذلك فرماه خالدٌ بأنه : حمار فى مسلاخ إنسان[٢] .

كما يبرز أميران فصيحان ، هما زياد بن أبيه الذى قيل إنه تَرَبَّى فى كنَفِ تميم ، والحجاج الذى وَجَدَ أن طريق القيادة قد شقَّه زياد بلسانٍ فصيحٍ ومصارحةٍ فريدةٍ وقلبٍ جرىء !

والأمر مهما يكن فى شأن خطابة البصرة فإنه يَدلُّ على خضوعٍ تام — من جانبها — لحساسية العصر ، وكشف مبناها ومحتواها جميعًا عن حياةٍ لا تبعد كثيراً عن الحياة التى وَقَفْنا عندها فى الباب الأول من هذا الكتاب ، وظهر أخيراً أنها اتسعت باتساع عُمْران المصر من ناحية وباتساع مشكلاته الاجتماعية من ناحية أخرى .

فى الجانب الأول — هو شكلى يتصل بالأداة — نلحظ بسهولة ما يدلُّ على أنه جُمَّاعٌ لمذهب الأولين فى الصياغة الفنية . وكان معنى ذلك أن الحاسة اللغوية عند الخطباء كانت قوية يقظةً ، وأنهم كانوا يلجأون إلى ضروب مختلفة

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٢١٥

(٢) مسلاخ : جلد ، راجع البيان والتبيين ١ : ١٢٨ وفى الموضع نفسه أنه قال : ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة !

من التنقيح قصدَ الإثارة . وإذا مقدرتهم الخارقة على التعبير الموسيقى والأسلوب الفصيح ، تكشف عن طاقات لغوية غنية لم تستطع حياة المدينة — ولم تكن حتى الآن قد خرجت عن طورها الساذج — أن تطمس عليها أو تنال منها .

وإذا كان من السهل أن نعطى فحولَ الشعراء حقّ الاقتداء بالأوائل فى كثير من ألفاظهم حتى حصلوا على النوعر والإغراب . فأسهل منه أن نعطى ذلك للخطباء ، باستثناء حالات خاطبوا فيها العامة فمالوا إلى التسهيل وتجنبوا الاستشهاد بالشعر القديم . ثم باستثناء أنواع من الخطب لاتحتاج إلى تحبير ما ، كخطَب الحفول والنكاح التى يستحب فيها الاستشهادُ بالقرآن الكريم وإن كان زياد لم يفعل ذلك[١] .

وفى مجال الاستشهاد نقرأ كلاماً للأحنف بن قيس يقول فيه « يابنى تميم تحابوا تجتمعْ كلمتكم ، وتباذلوا تعتدلْ أموركم ، وابدءوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلحْ لكم دينكم ، ولاتغلوا يسلمْ لكم جهادكم »[٢] .

ونستطيع بسهولة أن نرى فى النص روح القرآن كذلك طريقة صياغته من تقطيع وتقسيم ، ومن شيء يشبه أن يكون سجعاً . ويشبه أن يكون ككلام الحسن البصرى الذى ورد فى إحدى خطب النكاح : « أما بعد . . فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحامَ المتقطعة والأنساب المتفرقة ، وجعل ذلك فى سنة من دينه ومنهاج من أمره »[٣] فيثير من مشكلات البديع مايدل على أنه كان — إذ ذاك — طريقة فنية مستحبة !

ومن هذا الطراز المحكم بإيجازه وسجعه ، تلك الخطبة البتراء التى دخل بها زيادٌ على المصلين بمسجد البصرة والفسقُ بها فاش ظاهرٌ « أما بعد . .فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٩٢ ، ٩٣

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٨٠

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٨٦

ويشتمل عليه حلمائكم ، من الأمور العظام ينبتُ فيها الصغيرُ ولا يتحاشى عنها الكبير . كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعدَّ الله ، من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته . فى الزمن السَّرمَدى الذى لا يزول... ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة ، فى النهار المبصر والعدد غير قليل ؟ ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء . فلم يزل بكم ما تَرَوْن من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسًا فى مكانس الريب ! حرام علىّ الطعام والشراب حتى أسَوِّيها بالأرض هدمًا وإحراقًا . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صَلُحَ به أوله: لينٌ فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف[1] . . . » .

ولا مشاحَّةَ فى قوة نسيج هذه الخطبة اللغوى ، وقد نَمَّتْ عن ظاهرة بلاغية تتصل بالتشديق والتقعيب . وسادت العصر فى شكل دَفَعات مرتبطة باختلاج نَفَس الخطيب ، وبرغبة فى اصطناع ضروب من البديع قد تكون استعارة وقد تكون تشبيهًا . وكان معنى ذلك أن الخطباء كانوا يولون « الشكل » الفنى اهتمامًا .

وإذا كنا نستطيع أن نتخذ تلك الخطبة نموذجًا لخطابة البصرة فى اتصالها بالسياسة ، فإن غيرها يعطى الدلالة نفسها ، من حيث عناية الخطيب بالتأليف وباختيار الألفاظ . ولقد روى أن الأحنف بن قيس حين مات وقفت إحدى سيِّدات البصرة على راحلتها وقالت: «رحمك الله أبا بحر من مِجَنٍّ فى جَنَن ومُدْرَج فى كفَن . فوالذى ابتلانى بِفَقْدِك وبلَّغَنا يومَ موتك، لقد عشْتَ حميداً ومتَّ فقيداً . ولقد كنتَ عظيم الحلم فاضل السلم ، رفيع العماد وارى الزناد . منيع الحريم سليم الأديم . وإن كنت فى المحافل لشريفًا وعلى الأرامل لعطوفًا . ومن الناس لقريبًا وفيهم لغريبًا . وإن كنت لمسوَّداً وإلى الخلفاء لمُوفَّداً . وإن كانوا لقولك لمستمعين ولرأيك لمتبعين[2] » .

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٥٨ ، ٥٩ ، ورويت فى العقد الفريد ١ : ١٨٣ باختلاف .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ١١٤

وكأن القائلةَ فيما هتفت به هى نفسها زياد . فثمة إيجاز وبُعْدُ إشارة ، وثمةَ بديعٌ قوامُه السجع والازدواج ، وهناك مهارة بيانية تجمع بين عبارتَى الرجل المهدّد والمرأة المؤبِّنة .

ويذكرنا زياد بخطيب من رؤساء الفرق هو عمران بن حِطّان السدوسى المتوفى عام ٨٤ للهجرة « رئيس القعدة من الصفرية وصاحب فُتياهم ومقرعهم عند اختلافهم[١] » وعرف عمران بصاحب الخطب الشوهاء لأنه كان لا يستعين فيها بآى كتاب الله ، وسمعه شيخ بعد أن خطب عند زياد وأعجب به فقال : هذا الفتى أخْطَبُ العرب لو كان فى خطبته شىءٌ من القرآن[٢] ، وكان حقًّا ما يقول . فقد كان يصدر عن طبع فنى يشبه طبع الأعراب الأقحاح ، وكان يتكىء على بلاغته وقدرته الفائقة على التعبير القوى والتقعير .

فإن أعرضنا عنه إلى قَطَرِىّ بن الفجاءة التميمى الذى مات سنة ٧٩ والذى قال عنه الجاحظ « له خطبة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ[٣] » نجد تلك الطاقة الفريدة التى وجدناها عند عمران ، وهى هنا تتمثل فى التركيب البيانى المنفعل بحرارة الكلمات والمحتبك بقصر جملة حتى ليسهُل حفظها وترديدها . يقول بعد أن وقف على منبر الأزارقة فحمد الله وأثنى عليه « أما بعد . . فإنى أحذركم الدنيا فإنها حُلوة خَضِرة حُفَّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وتحببت بالعاجلة ، وغُمرت بالآمال . وتحلت بالأمانى ، وازيَّنت بالغرور . لا تدوم خُضْرَتُها ، ولا تؤمن فجعتها . غرّارة ضرّارة . خوّانة غدّارة . أكّالة غوّالة ، بذّالة نقّالة . . . كم واثق بها قد فجعته . وذى طُمأنينة إليها قد صرعته ، وذى اختيال فيها قد خدعته ! وكم من ذى أبّهة بها قد صيرته حقيراً . وذى نخوة فيها قد ردّته ذليلاً . . . ألستم فى مساكن مَنْ كان أطولَ منكم أعماراً وأوضح منكم آثاراً ، وأعدَّ عديداً وأكثف

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٥١ ، ٥٣ — ٣ : ١٥٤

(٢) نفسه ٢ : ١٩

(٣) السابق ١ : ٢٢١

جنوداً وأعند عنوداً ؟[١] » .

وعلى هذه الشاكلة يمضى قطرى ، ويستشهد بالقرآن حيناً بعد حين حتى يختم بقوله « عصمنا الله وإياكم بطاعته ، ورزقنا وإياكم أداء حقه » فإذا الخطبة تامة المبنى ، قوية السبك ، فيها سجع وفيها مزاوجة ، ويكثر فيها الإيجاز والتقسيم ، كما أنها لاتخلو من الصور البيانية الواضحة كقوله « أكّالة غوّالة » ، ومثله وارد فيما لم أصله بهذا المقتبس !

ونستطيع إذا عدنا إلى تلك الخطبة كاملة فى مكانها ، وإلى غيرها مما أوْرَدتُ ، وما سآتى به للحجاج بن يوسف الثقفى ، نستطيع أن نجد فيها جميعاً — برغم كثرة المعطوفات — إيجازاً يتحرى إسقاط كل ما لا يزيد المعنى تقريراً ، مع ميل ظاهر إلى اختيار الألفاظ الموقّعة على ما نرى فى نحو : غرارة ، وضرارة ، وخضرتها ، وفجعتها ، إلخ . . .

أما الحجاج الذى مات سنة ٧٥ للهجرة فهو قمة من قمم البلاغة والفصاحة وعرف بخطبته التى واجَهَ بها أهل الكوفة وبدأها ببيت الشعر المشهور :

أنا ابن جلا وطلاّعُ الثنايا متى أضَع العمامةَ تعرفونى[٢]

روى أنه كان يمرّ يوماً بطرقات الكوفة فسمع ما لم يعجبه من الصراخ ، فَصَعِدَ المنبر وحمد الله وصلى على نبيه ثم قال : « يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ، وبنى اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الإماء والفَقْع بالقرقر[٣] . . إنى سمعت تكبيراً لا يُراد به الله ، وإنما يراد به الشيطان وإنما مَثَلى ومثلكم ما قال عمرو بن بَرّاق الهَمْدَانى :

وكنتُ إذا قومٌ غَزَوْنى غَزَوْتُهم فهل أنا فى ذا يالَ هَمْدانَ ظالمُ
متى تَجْمَعِ القَلْبَ الذكىَّ وصارما وأنْفًا حَمِيًّا .. تَجْتَنِبْكَ المظالم

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٠٣ وباختلاف فى العقد الفريد ٤ : ١٤١ ، ١٤٢ (ط . لجنة التأليف سنة ١٩٤٤)

(٢) البيت من قصيدة لسحيم بن وثيل الرياحى ، ويعنى بابن جلا الصبح أو الأمر الظاهر .

(٣) الفقع : الكمأة البيضاء ، القرقر : الأرض المنخفضة

أما والله لا تُقرع عصًا بعصاى إلا جعلتُها كأمس الدابر[١] » .

ووقف بين البصريين يومًا وخطب فيهم قائلاً : « اتقوا الله ما استطعتم ، فهذه لله فيها مثوبة ، واسمعوا وأطيعوا ؛ فهذه لعبد الله خليفة الله حبيب الله عبد الملك بن مروان . والله لو أمرتُ الناسَ أن يأخذوا فى باب واحد وأخذوا فى باب غيره لكانت دماؤهم لى حلالاً من الله . عذيرى من هذه الحمراء ، يَرْمى أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول : يكون إلى أن يقع هذا خير ! والله لأجعلنَّهم كأمس الدابر[٢] » .

وأول ما يُلْحَظُ فى هذه السطور من خُطَبِه أنها من طِراز نثرىّ فخم ، فيه طاقةٌ على حُسْن السَّبْك وجَوْدة الحذف . وينم عن فصاحة رفيعة مع إيثار مقصود للإغراب وللصوَر البديعية ، ويرى شوقى ضيف أنه يبذل قصاراه للانتفاع بما يحفظ من شعر فى تصويره فى حين يعتمد قَطَرِىٌّ على نفسه « فى صنع صوره ، ويملأ هذه الصور بالتشخيص حتى يثير الخيال إثارة بعيدة[٣] » .

* * *

أظن أنَّ هذا يكفى لمناقشة مَبْنَى خُطَب هذا العصر فى البصرة ، وقد آثرت أن أجعل خالدَ بنَ صفوان وشبيبَ بنَ شيبة فى العصر التالى لوقوع جُزْء كبير من حياتهما فى القرن الهجرى الثانى .

فإن ناقشنا المحتوى وجدناه فى حقيقته تعبيراً عن ماض كان ، وعن حاضر قائم ، وعن مستقبل مُرْتَجىً أو رغبة فى شىء لم يكن ويريد الخطباءُ أن يكون .

فالخطبة من حيث هى عبارة عن الماضى سجل لتاريخ أمة جَمَعَ تجارب العرب القديمة . فالحسن البصرى يذكر أهل البصرة بما كان يفعله الرسول وأصحابه ،

---

(١) العقد الفريد ٤ : ١١٥

(٢) نفسه ٤ : ١١٧ ، ١١٨ والعذير هو النصير ، وما يحاول عمله مما يعذر عليه إذا عمله .

(٣) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٢٨

والحجاج يبعث المفاهيم الاجتماعية عن طريق روايته للشعر القديم ، وقطرىّ يتعرض لرواية الآيات التى فيها أخبار بعض من باد . هكذا . والجميع يشتركون فى استيحاء القيم الخلقية التى تضمنتها الأمثال . وقد انتشرت فى منطقة البصرة .

وأما الخطبة من حيث هى عبارة عن حياة قائمة . فالأمر فيها واضح . لقد نَمَّت جميع الأمثلة التى أوردتها على البلبلة النفسية التى عاش فيها البصريون وعلى ما أصاب حياة العرب فى المصر من فساد وشَرّ ، وعلى أنهم كانوا لا يبالون بشىء ، فجاء كل ذلك مصداقًا لما قلت من أن حياة البصرة لم تكن قارّةً قط .

ومن جانب آخر نرى الأحنف بنَ قيس يحاول بخطبه أن يوفّر لبلده الرخاء . ويحاول أن يَضْمَنَ له علاقة[1] طيبة بالخليفة . بينما يُصِرُّ الحسنُ البصرى على أنْ يطرقَ الجانب الدينىَّ ، يشاركه فى ذلك بعضُ الرقاشيين الذين سنلتقى بهم كثيراً فى عصر التجديد !

كل هذا وذاك يشير إلى خصوبة مادة الخطب وإن اختلف الخطباء . كما يشير إلى تعرُّض هذه المادة لأحداث العصر السياسية فى أغلب الأحيان .

وبذلك يبقى ما قلته عن أن الخطبة قد تعبر عن رغبة فى شىء مُرْتَجىً . . قد تصوّر حلمًا بمجتمع أفضل ، أو قد تكون إرهاصًا لمدينة فاضلة ! وأنا أزعم أن الأمثلة على هذا النوع من الخطب دون ما نراه تعبيراً عن النظام القائم . اللهم إلا إذا جعلنا نبرات السخط وعباراتِ الثورة دليلا سلبيًّا على رغبة فى تحقيق حالةٍ ليست قائمة .

ومع هذا ففى خُطَبِ الخوارج كثيرٌ مما أريد ، وكذلك فى دعوات الشيعة التى مَثَّلَها ابنُ الأشعث وانضم إليه فيها قُرّاء فاتُّهِمُوا بأنهم حاربوا من أجل

---

(١) خطبة الأحنف التى خطبها بين يدى عمر عن الماء معروفة وقد أوردناها . وأولها « يا أمير المؤمنين ، إن مفاتيح الخير بيد الله » .

الدنيا[١] . وكان ابن الأشعث دائماً يذكر أهل البصرة — ولعلهم القُرَّاء من أهل البصرة — بظلم الحجاج . وخاض بهم معارك ضد الأمير القاسى فى المربد وغير المربد. وكان يقول لهم : « إنه لم يبق من عدُوّكم إلا كما يبقى من ذَنَب الوزغة تضرب بها يميناً وشمالا . فما تلبث إلا أن تموت »[٢] . وروى أن الزط والسيابجة — أحلاف تميم — كانوا فى حركته معه[٣] مما يرينا فعلا أن الرجل كان يبشر بحياة غير هاته الحياة التى عرفها البصريون أيام حكم الحجاج !

* * *

بقى شىء رأيت أن أذَيِّلَ به عَرْضِي للخطابة ، وإن يكن لا يَمُتُّ لهذا الفنِّ بِصِلَةٍ قريبة ، هذا الشىء هو العظات التى جَرَتْ على كثير من ألْسِنَةِ فقهاء البصرة وشيوخها الزاهدين ، ومثلت اتجاهًا مضاداً لأخذ البصريين باللذة والتكالب على الدنيا .

وتذكرنا هذه العظات بسجع الكهان أحيانًا ، وبأمثال الجاهلية أحيانًا أخرى ، فى إيجازها وقِصَرِ عباراتها . وفى اصطناعها السجع وميْلها إلى الازدواج ، ولعل الأحنف بن قيس يوضع مع الحسن البصرى فى رأس قائمة الواعظين . والأحنف هو الذى أوصى أبا موسى الأشعرى بوصايا لم يعمل بها وهو مع عمرو بن العاص يوم التحكيم ، فقال له : « أدْخَلَ واللهِ قدميْك فى خُفٍّ واحدة » .

وقد ذكر له القالى شيئًا من عظاته وحِكَمِه أسوق منها قوله : « لن يهلك من قصد ، ولن يفتقر من زهد . من أمن الزمان خانه ، ومن تعظَّم عليه أهانه . احتملوا لمن أدلّ عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر إليكم . أطع أخاك وإن عصاك ، وَصِلْهُ وإن جفاك . واعلم أن كفْر النعمة لؤم ، وصحبةَ الجاهل شؤم »[٤] .

---

(١) الحلية ٢ : ٣٢

(٢) البيان ٢ : ١٢٢

(٣) راجع فتوح البلدان ٣٦٦

(٤) الأمالى ٢ : ٢٢ وراجع أيضاً البيان ١ : ١٦٨ ، ١٧٦ — ٢ : ٦٨

وأما الحسن البَصْرى فمن كلامه : « يابنَ آدم ، إذا رأيتَ الناس فى الخير فنافِسْهُم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشرّ فلا تغبطْهم فيه . الثواء هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبىّ بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الساعة والساعة تسوقكم وإنما ينتظر بأولكم أن يلحقه آخركم[١] » .

ومن كلامه وقد تلا يومًا بعض آى كتاب الله « إن قومًا غنوا فى المطارف العتاق والعمائم الرقاق ، يطلبون الإمارات ويضيعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه فى عافية ، حتى إذا أخافوا من فوقهم من أهل العفة ، وظلموا من تحتهم من أهل الذمة أهزلوا دينهم وأسمنوا براذينهم ، ووسعوا دورهم وضيقوا قبورهم[٢] » .

وتبرز هنا بعد ذلك شخصيات ضخمة أذكر منها أبا حمرة يحيى الخارجى[٣] الذى امتدت حياته إلى ما بعد عصر هشام ، ومحمد بن سيرين الذى عرفنا عنه قبلُ أشياء ، وأيوب بن القِرّية الذى يقول عنه الجاحظ إنه من أشهر الخطباء عند العامة[٤] ، وكان يقول : « المزاح أوله فرح وآخره ترح . والمزاح نقائض السفهاء ، كالشعر نقائض الشعراء . والمزاح يوغر صدر الصديق وينفر الرفيق[٥] » كما يبرز مؤرق العجلى الذى جمع له الجاحظ أقوالا كثيرة فى الحكمة والوعظ[٦] .

---

(١) البيان ٢ : ٧٦

(٢) نفسه ١ : ١٢٣ وفى النوادر ١٧٠ رواية تبين كيف كان الحسن يولع بالازدواج ما كان بعيداً عن الأسلوب المسجع ؛ فقد سأله رجل عن على بن أبى طالب فقال « أعن ربانى هذه الأمة تسأل ؟ لم يكن بالسروقة لمال الله ، ولا بالمداهنة لحق الله . أعطى القرآن عزائمه فيما عليه وله ، حتى أورده على رياض مونقة وجنان غسقة » وورد هذا النص بزيادة فى ١٩٤ من المصدر المذكور رداً على من قال له : يزعم الناس أنك تبغض علياً !

(٣) راجع البيان ٢ : ١٠٠

(٤) نفسه ١ : ٣٤ وروى له الجاحظ ما يدل على أنه كان يسجع (١ : ١٩١) وقد قتل أيام الحجاج .

(٥) مجانى الأدب ٣ : ١٢٠

(٦) البيان ٢ : ١٥٠ ، ٢٢١ — ٣ : ٩٣

وعامر ابن عبد قيس التميمى ، وصفوان بن محرز التميمى ، وبكر بن عبد الله المزنى[١] .

القصص :

لا أستطيع أن أقوّمَ هذا الفنَّ تقويمًا دقيقًا . بل لا أستطيع أن أقدّم له صورة ولو مطموسة المعالم ؛ فلم يعد أمامنا — على وجه التحقيق — آثار مباشرة من نتاج ذلك العصر ! وإن دراسة ما نكاد نعثر عليه فى شتّى الأثبات لتكشف عما عراه من التحوير والتبديل ، حتى يصبح شيئًا بعيداً عن أن يدل على فنية أو يحمل مضمونًا .

إننا نعثر أحيانًا فى كتب التاريخ التى ألفتْ بعد عصر التدوين الأول ، أقوالا منسوبة لمن قصُّوا فى البصرة . غير أن هذه الأقوال لم تسجل إلا بعد أن هان القَصص ، وانحرف عن اتجاهه الدينىّ الوعظىّ . ولو وصل إلينا شىءٌ مثل ما وصل عن وهبِ بن مُنَبّه وعَبيد بنِ شَرْيَة — ولم يكونا بصريين — لاستطعنا على الأقل أن نُعطىَ ملامح عامةً لنشأة القصة فى البصرة ، وإن كنا لا نستبعد أن تتواتر فى أطُر كالتى نراها فى « أخبار عبيد » مثلا .

ومع ذلك فلا أظن أن كتابَ عبيد كان أيامَ معاوية على هذه الصورة التى نقرؤها به ، لأنّ القصة فيه مقصودة لذاتها بعيداً عن صفتها الدينية ؛ فمعاوية يسأل المؤلفَ القاصَّ الجرهمىَّ عن « رجْم البيت الحرام » مثلا فيخوض فيها خَوْضًا منسّقًا له بدايةٌ ممعنة فى القِدم . وبعد أن يفرغ مما يريد — أو يخيَّل إليه أنه فرغ — يعود معاوية فيسأل « فحدّثْنى يا عبيد عن هلاك عاد ، وكيف كان هلاكهم[٢] » ، وهكذا . . . يتحرك القَصَّاصُ فى محيط خيالى ، آسر ،

---

(١) راجع الحلية ٢ : ٨٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ وقد صحب عامر وصفوان أبا موسى الأشعرى فى حين كان بكر من أصحاب الحسن ، وقد قيل فيهما : شيخ البصرة الحسن وفتاها بكر ! (البيان ١ : ٨٣ ، ١٧١)

(٢) أخبار عبيد ٣٢٥ فى مجلد مع كتاب التيجان .

لا يستهدف إلا الإثارة والمتعة وملء الفراغ !

وتكفينا الدراسة الأولى للكتاب مشقة الاستنتاج ؛ فثمة عدة روايات يدخل فى سندها رجال عاشوا فى القرنين الثانى والثالث الهجريين . وروايات يرويها غير عبيد ! نقرأ مثلا العبارة التالية « وذكر محمدُ بنُ إسحاق من غير رواية عبيد بن شرية أنهم . . . » ، فإذا انتهى ابن إسحاق ، وقد مات سنة ١٥٠ هـ ، وذابت آثاره عند الطبرى وابن هشام . يقول مصنف الكتاب « رجع الحديث إلى عبيد ابن شرية ، قال عبيد . . .[١] » .

إذن فالمشكلة أدقُّ مما نتصور . . مشكلة لا يُغْنى فيها أن نرى وَهْبَ ابنَ مُنَبِّه ينقل قَصص ابن عباس عن قابيل وهابيل وذى القرنين وهود ويأجوج ومأجوج[٢] ؛ فسياق هذا القَصص لا يدل إلا على أن الفكرة العامة هى وحدَها لابن عباس ، والصياغة لوهب أو لمن يحكى لوهب .

ويكفى بعد كل ذلك أو قبل ذلك أن نرى كل ما رُوِىَ عن البصريين الأولين بعيداً عن المجال الوعظى . والحق أن تلك الظاهرة لا يمكن إنكارها . ولاسبيل إلى الغضِّ من قيمتها ، وإلا فهل نعقل أن واحداً كالجاحظ لايستطيع أن يفرّقَ بَدِيًّا بين الزاهدِ والقاصِّ ؛ فيخلط بينهما أحيانًا ويمهد لذكر القاصين بسرد طائفة كبيرة من زهاد البصرة ؟

ومن هؤلاء الزهاد عامر بن عبد قيس بن أشيم وعثمان بن أدهم ومؤرّق العجلى ، وقد جعل هؤلاء مع آخرين ظهروا قبل فريق آخر فى عصر يزيد الرقاشى وصالح المرى[٣] .

وإذا كنا نجهل عن بعض هؤلاء أموراً ، فلا يمكن أن نجهل شيئًا عن مؤرّق العجلى ويزيد الرقاشى . وقد عُرِفَ هذان بالفصاحة ، وشغلا بالقصص إلى جانب دأب كريم على الزهادة . ومن ثم آثر الجاحظ — وقد رأى مثلهما

---

(١) أخبار عبيد ٣٨١ ، ٣٨٢

(٢) كتاب التيجان ١٥ ، ٤٥ ، ٦٩ ، ١١٢ ، ١٥٨ ، ١٧٥ ، ٢١٩

(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٢ — ٣ : ١١٦

عدداً — أن يذكر الحسن البصرى مع القاصين ، وقد كان لا يختلف فى شىء عن مؤرّق ويزيد[١] . ولو قرنّا اتجاهات الحسن المعيشية وآراءه فى الدنيا بما رواه الجاحظ عن جعفر بن الحسن وموسى الأسوارى — وكلاهما رجل دين وزهد — لأدركنا عمق الصلة بين القاصّ ورجل الدين أو الزهد بصفة خاصة .

فأما جعفر بن الحسن فالجاحظ يرى أنه « أول من اتّخذَ فى مسجد البصرة حلقة وأقْرَأ القرآن » ، وأما موسى بن سيار الأسوارى فقد عرفنا — قبلُ — كيف كان يقُصُّ بالعربية والفارسية جميعًا : « ولم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقْرَأ فى محراب من موسى بن سيار[٢] » .

وقد جاء بعد هؤلاء عمرو بنُ فائد الذى جلس فى جامع البصرة يقصّ ستًا وثلاثين سنة « فى فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن نصيبًا من ذلك »[٣] .

وهكذا نقول إن عمل القاصّ فى ذلك العصر كان — بلا جدال — دينيًّا ، كان إسلاميًّا بَحْتًا . وقد اختلط بأساطير كان يعرفها القاصُّون ، واتصلت اتصالاً مباشراً بما وَرَدَ فى القرآن الكريم من إشارات إلى أمم بائدة .

بذلك يظهر من المعقول جدًّا ألا نكلفَ أنفسنا مشقة عمل يشبه محاولتى فى الخطابة . وأحسب أنّ دراسةً من هذا القبيل أخلق بها مجالات أخرى ، لأنها بحاجة إلى تحرّيات ضخمة مسهبة يضيق عنها هذا الكتاب . إذ ينبغى علينا أولا أن نناقش بصراحة كلّ نتاج يعتمد على نُقُول تُنْسَبُ إلى البصريين الأوائل ، بل لامناص من دراسة صياغة المتون ومقارنتها بشخصية القائلين لنعرف إلى أىّ حدّ يرتبط المتن المروىُّ بقائله الحقيقى .

ومع هذا فلا نملك إلا أن نقول إن قصص هذا العصر يحمل روح العصر ..

---

(١) البيان ١ : ٢٣٤
(٢) نفسه ١ : ٢٣٤
(٣) السابق ١ : ٢٣٥

من عناية بمسائل قرآنية اتخذت شكل القصة ، فأسهم فى تفسيرها رجال آمنوا — وهم حسنو النيَّة — بضرورة إيجاد علاقة بين تلك المسائل وبين ما شاع فى المصر من حكايات وأقوال !

والقصص من هنا تصلح أن تكون تعبيراً عن حيوات اندثرت ، وعن واقع قائم ، فيه شَغَفٌ بالمعرفة ، وله غاياتٌ فكريةٌ معينة ، ويرسم أيديولوجية إسلاميةً جديدةً .

الكتابة :

يروى البيهقى أن زياد بن أبيه « أرق ذات ليلة وهو فى البصرة ، فبعث إلى غَيْلان بن خَرَشَة الضَبِّ وسُوَيْد بن منجوف السَّدُوسى والأحنف بن قيس السَّعْدى ، فلما توافدوا إليه قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟ إنه كان عندى ثلاثة من دهاقين كِسْرَى يحدّثون بما كانت الأكاسرةُ فيه من مُلكها وعِظَم شأنها فتقاصَرَ إلىَّ ما نحن فيه ، فبعثتُ إليكم لتصفوا لى ما كانت العرب فيه من البؤس وشدة الحال ، لنقنع بما نحن فيه »[1] .

ولو قال « أقنع » لسَلَّمْتُ بأنه يَنشُدُ لنفسه معرفةً ، ولكنه عَمَّمَ ، فأفاد أنه يريد غيره أن يتعرف على ماض بشىء يكتب ، فإن صح ذلك أمكن أن نعدَّ إمارة زياد على البصرة بَدْءاً للتأليف المنظم فيها ، وقد مرَّ منذ قليل أنه هو نفسه وضع كتاباً فى مثالب العرب .

على أن هذا اللون من الكتابة التاريخية لا يوحى لنا بفنيَّة ولا بتلقائية ، بمعنى أننا لا نستطيع أن نستشف منه طبيعته ، لأنه ليس بين أيدينا ، ومن ثم ينبغى أن نسأل : هل كان هناك كتابة تعتمد على التنميق ؟ هذا شوقى ضيف يتطوع بالإجابة عن السؤال بقوله : « إذا انتقلنا إلى العصر الأموى وجدنا الرغبات فى إحداث الكتابة الفنية ، وما انبعث مع هذه الرغبات من عناصر

---

(١) المحاسن والمساوىء ٢٩٩ (ط . أوربا سنة ١٩٠٢) والبيان ٣ : ٥٥

أدبية ، كل ذلك يتكامل ويأخذ طريقه فى إحداث هذه النماذج الفنية من الكتابة هى نماذج حديثة العهد بالقياس إلى العرب[١]» .

معنى ذلك أن العمل الذى قُدّم لزياد كان يستهدف إثارة ، وكان فيه تحبير ، وإلا لضاع ما كان يرمى إليه الأمير الأموى !

ومعناه أيضًا أن كُتّابه هو — وكان يصطنع كتابًا[٢] — كانوا مهيئين لأن يحبّروا ، وكان هو — فى الحق — يدقق فى اختيار هؤلاء الكُتّاب . رُوِىَ أنه دخل يومًا ديوانه ، فوجد كتابًا وفيه « ثلاثة دِنان » فسأل : من كتب هذا ؟ فأشير إلى رجل وقيل له : هذا الفتى ! فقال : أخرجوه من ديواننا لئلا يُفْسِدَه وامْحُ هذا واكتب « أدُنّ »[٣] وقد لا تروعنا هذه الدّقة إذا ذكرنا أن زياداً نفسه تعرّض لاختبار «فنى » دقيق من عمر بن الخطاب عند ما كان زياد كاتبًا لأبى موسى الأشعرى فى البصرة[٤].

وفى أيام عبد الملك بن مروان كان زادان فرّوخ الأعور الذى عمل لزياد يتقلد ديوان الفارسية للحجاج فى البصرة ، فلما عزل زاذان خلفه صالح بن عبد الرحمن فحوّل الديوان إلى العربية سنة ثمان وسبعين ، وصدر بتقاليد معينة أخذ بها كتاب العراق كافة حتى قيل « وكان كتاب العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن أبى قُرّة كتب ليزيد بن المهلب منهم قُحْذُم بن أبى سليم ، ومنهم مَرْوان بن إياس كتب لخالد القَسْرىّ[٥]» .

وكان على الرسائل إذ ذاك — فيما تدل الأخبار — قوم عُرِفُوا بالفصاحة والتنميق ، وقد استخدم يزيد بن المهلب على رسائله من قِبَلِ الحجاج يحيى بن يَعْمَر العَدوانى البصرى فكتب للحجاج بعد أن أوقع يزيد بأعداء الحجاج :

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٣٣ ، ٣٤

(٢) فى الوزراء والكتاب ٢٦ كان يكتب له على الخراج زاذان فروخ وعلى الرسائل عبد الله ابن أبى بكرة وجبير بن حية ومرداس مولاه .

(٣) الوزراء والكتاب ٢٥ كأن الأمير رأى أن « أدن » كأكف جمع قلة ، وهو غير الجمع دنان .

(٤) الوزراء والكتاب ١٨

(٥) الوزراء والكتاب ٣٩ سيشهر قحذم فى عهد هشام .

« إننا لقينا العدوَّ فمنَحنَا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ، ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعرائر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار ، فبتنا بعرعُرة الجبل وبات العدو بحضيضه[١] » .

وتُقرّر الرواية نفسها أن الحجاج لما استقدم يحيى رأى « أفصح إنسان » وهذا يعطينا أول خط فى طبيعة كتابة هذا العصر ، وسيظل الأمر كذلك حتى يظهر عبد الحميد فى عصر التجديد ، وما حدث من تطور لا يعدو الآلة والطومار . قال القلقشندى ناقلا عن الجهشيارى « ولم يزل أمر المكاتبات فى الدولة الأموية جاريًا على سنن السلف إلى أن ولى الوليد بن عبد الملك فجوّد القراطيس وجلّل الخطوط وفخّم المكاتبات ، وتبعه من بعدَه من الخلفاء على ذلك ، إلى عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد[٢] » .

هذه القائمة من الكُتّاب التى تبدأ بزياد — وأذكر معه ابنه عبيد الله [٣] تعطينا نمطًا له طابعه الخاص ، ونستطيع أن نتعرف على ملامح هذا النمط بعرض بعض ما حفظته لنا الأثباتُ القديمة ، على أن نقرر أن كثيراً من الكتابات التاريخية امتصته كتب ابن هشام والطبرى والمسعودى .

فأما زياد فقد كتب لعامله على خراسان ، وقد علم أنه أصاب مغنمًا : « إن أمير المؤمنين معاوية كتب إلىّ يأمرنى أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء ، فإذا أتاك كتابى هذا فانظرْ ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه واقسم ما سوى ذلك[٤] » .

هكذا باختصار ، ولكن بعبارة قوية ليس فيها صنعة بديعية ، ولا تميل إلا

---

(١) الوزراء والكتاب ٤١ وعرائر أسافل ، وأهضام مداخل ، والغيطان الحوائط ذوات الشجر ، وعرعرة أعلى (راجع أيضاً إعتاب الكتاب لابن الأبار ٥٣ ط . مجمع اللغة العربية بدمشق تحقيق الدكتور صالح الأشتر) .

(٢) صبح الأعشى ٦ : ٣٩١ والوزراء والكتاب ٤٢ ، ٥٣ والطومار الصحيفة جمعها طوامير

(٣) راجع الوزراء والكتاب ٢٥ ، ٣١ وذكر الطبرى أنه كان له كاتب عد أول من طول الكتب ، هذا الكاتب اسمه عمرو بن نافع ٢ : ٢٧٠

(٤) البيان ٢ : ١١٠

إلى مجرد الإبلاغ ، ويشبه ذلك ما كتبه للحسن بن على بن أبى طالب وقد ثار عليه ، فقال : « أما بعد ، أتانى كتابك فى فاسق يؤويه الفساق من شيعتك وشيعة أبيك ، أيم الله لأطلبنهم ولو بين جلدك ولحمك ، وإن أحبّ لحم إلى آكله لَلَحْمٌ أنت منه[1] » .

وأستطيع أن أصف هذا الأسلوب المباشر فى التعبير بالسهولة المحكمة ، ونرى كلماته جزلة متينة بعيدة عن أى تصنع بيانى . إلا أن هذا لم يكن يمنع غيره من اختيار الكلمات الغريبة فى الصياغة القوية التى تشبه صياغة الخطبة الفخمة .

كتب الحجاج إلى عامل له بفارس يقول : « ابعث إلى بعسل من عسل خُلار من النحل الأبكار ، من الدستفشار الذى لم تمسه النار[2] » وكتب إلى عبد الملك ابن مروان : « أما بعد ، فإنا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضَنا وابلٌ منذ كتبت أخبره عن سُقْيا الله إيانا ، إلا مابَلَّ وجْهَ الأرض من الطَّشِّ والرشِّ والرذاذ حتى دُقعت الأرض واقشعرت واغبرّت ، وثارت فى نواحيها أعاصير تذرو دقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها وامتناعها . وأرضنا أرضٌ سريعٌ تغيرُها وشيكٌ تنكرها ، سيِّءٌ ظنُّ أهلها عند قحوط المطر . حتى أرسل اللهُ بالقَبول يوم الجمعة ، فأثارت زِبْرِجًا مُتَقَطِّعًا متمصراً ، ثم أعقبته الشَّمالُ يومَ السبت فطحطحت عنه جهامَهُ وألفت متقطِّعَهُ وجمعت مُتمصِّره ، حتى انتضد فاستوى وطما وطحا ، وكانَ جَوْنًا مُرْثَعِنًّا قريبًا رواعده ، أعْتَدَتْ عوائدَه بوابل منهمل منسجل يُرْدِفُ بعضُه بعضًا ، كلما أردف شُؤبوب ارتدفته شآبيب لشدة وقعه فى العِراض . وكتبت إلى أمير المؤمنين وهى ترمى بمثل قِطَع القطن قد ملأ اليباب وسَدَّ الشعاب ، وسقى منها كلُّ ساق . فالحمد لله الذى أنزل غيْثَه ، ونَشَرَ

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢١٢

(٢) نفسه ٢ : ٨٧

رحمته من بعد ما قَنِطوا ، وهو الولى الحميد والسلام »[١].

لقد آثرت أن أثبت الرسالة هنا كاملة ، وهى لا تختلف فى طبيعة نسيجها اللغوى عن رسالته التى بعث بها إلى عامله بفارس ، لا ولم تختلف أيضًا عن رسالة يحيى بن يعمر التى تقعر فيها وأغرب . بل لعل الحجاج كان أكثر توعراً . واختار ألفاظاً كان من الممكن أن يثبت فى مكانها غيرها مما يدور على الألسنة ، ولكنه فيما يبدو لم يكن يؤثر إلا إراعة قارئيه وسامعيه على حدّ سواء ، فاختار الخشن المهجور !

وأين هذا من كلام الحسن البصرى ، من رسائله التى لا تحمل — من خصائص كتابة الحجاج — إلا الإيجاز ، يقول هذا العالم الزاهد: « اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل ، قوام كل مائل ، وقَصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصَفَةَ كل مظلوم ومفزع كل ملهوف [٢] » . كما كتب إلى عمر بن عبد العزيز : « أما بعد ، فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل[٣] » .

فإذا شئنا أن نختار لغير هؤلاء ، برز لنا قطرى بن الفجاءة فى رسالة بعث بها إلى الحجاج وفيها يقول: « سلام على الهداة من الولاة الذين يَرْعَوْنَ حريمَ الله ويرهبون نِقَمَهُ . فالحمد لله على ما أظهر من دينه وأظلعَ به أهلَ السَّفالة وهدى به من الضلالة ونَصَرَ به عند استخفافك بحقه . كتبت إلىّ تذكر أنى أعرابى جلفٌ أمىٌّ أستطعم الكسرة وأشتى بالثمرة ، ولعمرى يا بن أم الحجاج إنك لميت فى جبتك مُطْلَخِمٌّ فى طريقتك واهٍ فى وثيقتك ، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك ! يئست واستيأست من ربك ، فالشيطان قرينك

---

(١) البيان ٣ : ٢٧٢ أماالطش فهوكالرش من صفات المطر ، ودقعت زال منها كل نبات فيها ، واعتزازها اشتدادها ، ومتمصراً متمزقاً ، وطحطحت فرقت ، ومرثعنا غزيراً متصلا ، وأعتدت هيأت ، ردف تبع ، وأردف توالى ، ومنسجلا منهمراً ، وشؤبوب دفعة المطر .

(٢) نهاية الأرب ٦ : ٣٧

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٦٤ ، ٣ : ٨٠

لاتجاذبه وثاقك ولا تنازعه خناقك . فالحمد لله الذى لو شاء أبرز لى صفحتك ، وأوضح لى طلعتك . فوالذى نَفْسُ قطرىّ بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليست كتصدير المقال . مع أنى أرجو أن يَدْحَضَ الله حجتك ، وأن يمنحنى مهجتك»[١] .

ونلحظ أن قطريًّا فى عنايته باختيار الكلمات ، وبصياغتها فى قالب دقيق ضيق ينحو نحواً بيانيًّا خاصًّا ؛ فهو يسجع أحيانًا ، وهو يزاوج ، هو يحبر ويصنع بعض الصور البديعية . وقد أشبه قطرى فى هذا الاتجاه المسجع المحبر سائر رجال الفرق الذين كانوا ينشدون التأثير ، كما أشبه الخطباء الذين يعمدون إلى التفاصح والتشدق. وقطرى على أية حال كان يوازى دائمًا بين السجع والتصوير ولم يكن يغلو غُلوَّ الحجاج فى التوعر !

ونتوقف هنا ، فما عدا ما ذكرت لا يختلف ؛ فهو من دمه ولحمه ، وهو يحمل طابع السهولة المحكمة التى قد يعقدها أحيانًا تقعر الكتاب ، ولقد وضع هؤلاء لمن بعدهم نماذج مثالية للبليغ المصيب حتى قال المسجديون من أهل البصرة : « من تمنى حسن العقل وحسن اللسان وحسن القلم تمنى شيئًا عسيراً »[٢] .

ذلك عن المبنى ، فأما المحتوى فهو مضامين تكشف عن حياة البصرة كشفًا واضحًا . ولقد نرى الرسالة أو الكتاب فى شىء عن الماضى ، فتكون الكتابةُ — من ثَمَّ — تعبيراً عما كان ، وتُقَوِّمُ من هنا عناصرُ التاريخ . ونستطيع أن نذكر فى هذا المجال ما ألَّف لزياد من قِبَلِ الأحنفِ وزميليه ، وما ألَّفه هو ، ثم ما ألَّفه علاقة بن كُرْسُم فى عهد يزيد بن معاوية[٣] .

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٢٠ وأظلع أعرج ، ومطلخم مضطجع ، ولعمرى لدينى (يقسم به).

(٢) السابق ١ : ١٧١

(٣) قيل إن علاقة — وهو أحد بنى عامر بن قلاب — صنف فى الأخبار والأمثال (الفهرست لابن النديم ٩٠) وكان نديم يزيد بن معاوية — راجع الفهرست لابن النديم ٩٠ ومعجم الأدباء ٥ : ٦٦ (ط. هندية) .

وأما تصوير الحياة القائمة فأكثر الموروث عن هذا العصر فى ذلك ، وقد مرت بنا رسائل شتى تصف حالات خاصة للبصرة وحكام البصرة ، وهى تنطبق تمام الانطباق على ما مرّ بنا فى الفصل الأول . وقد كنت أريد أن أناقش هنا رسالة الحسن فى « القدر » لولا أنها لاتضيف جديداً ، ولولا أنها لا تغير من أخذ البصريين بالجبرية داخل هذا الحيز الزمنى الذى نلقى عليه الأضواء .

وأما كتابات الحجاج ورسالة قطرى فكلها تبين أن الوضع السياسى فى البصرة لم يكن مستقراً ، وأن هذا الوضع هو الذى أثار البصريين على الحجاج مثلا . حتى لقد اجترأ قوم من عمرو بن تميم وحنظلة على أن يقطعوا عليه الطريق فلما أفلت كتب إليهم يقول : « أما بعد فإنكم استخلصتم الفتنة ، فلا عن حق تقاتلون ، ولا عن منكر تنهون . وأيْم الله إنى لأهتم أن يكون أوّل ما يَرِدُ عليكم من قِبَلى خيلٌ تنسف [1] الطارف والتالد ، وتدع النساء أيامى والأبناء يتامى ، والديار خرابًا والسَّوَاد بياضًا . فأيُّما رفقة مرّت بأهل ماء فأهلُ ذلك الماء ضامنون لها حتى تصير إلى الماء الذى يليه ، تقدمة منى إليكم والسعيد من وعِظ بغيره [2] » .

مثل ذلك واضح ، إنما الشىء الذى يصعب تصويره هو مدى ما عبَّر عنه كُتَّابُ هذا العصر فى سبيل المستقبل . ومن الطبعى أن نقع على غايتنا فيما عسى أن يكون قد خلفه لنا الخوارج ، غير أن من المشكوك فيه أن تكون هذه الفرقة قد وضعت أى كتاب فى مذهبها ، وبالتالى تكشف فيه عن رغبة فى إقامة نظام جديد « وقد نسب كتاب العقيدة إلى عبد الله بن إباض التميمى مؤسس مذهب الإباضية المولود فى خلافة معاوية ، وقيل إنه صنفه فى خلافة عبد الملك بن مروان ، ولكن هذه العقيدة وهابية [3] » .

---

(١) تنسف : تقلع من أساسه .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٥١ وأيم الله : هى أيمن الله ، قسم معناه يمين الله .

(٣) بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى ٢٥٩ .

وما يقال عن الخوارج فى هذا الصدد ينطبق على الشيعة الزيدية الذين عاشوا فى البصرة جنبًا إلى جنب مع السنية .

ب — فى الشعر

الصورة العامة للشعر العربى :

على ضوء ما قدّمتُ ، أستطيع أن أقرّرَ أن البصرةَ ينبغى أن تكون مركز تجمع للشعر الجاهلى ؛ فتميمٌ رأس قبائل المصر متعصبةٌ للقديم ، والمِرْبَدُ يغرى الأعرابَ بحياة تشبه حياة بواديهم وأسواقهم الأولى ، والرواةُ الذين اشتغلوا بجَمْعِ الشعرِ ما فتئوا يبحثون عما يواكب حركة الاهتمام المبكرة باللغة ، وكثيرٌ من الشعراء الجاهليين استقرَّ فى المدينة استقرار مَنْ لا يجد فَرْقًا بين حياته الجديدة وحياته القديمة .

كل هذا يجب أن يحفظ للشعر — الذى دوّنت به البصرةُ فى مطالع حياتها الإسلامية — أطُرَهُ الأصليةَ وموضوعاتِه التقليديةَ وَلُغَتَهُ وليدةَ البيئة الجاهلية . ومن ثَمَّ يكون من العبث أن أدّعى تطوُّراً أصاب القصيدة العربية ، فى فجر الحياة الإسلامية بالبصرة .

كان النَّمِرُ بن تَوْلَبَ مثلا أحدَ الشعراء الأولين الذين عُرِفُوا بالفصاحة وقد فتنه المِرْبَد فهاجر إلى البصرة كبيرَ السنِّ لا يقول الشعرَ فيما تعوَّد الشعراء أن يقولوه مدحًا وهجاء[1] وإنما قصره على زوجته التى فرَّت منه إلى أهلها — وكانت أسيرة — بعد معاشرة طويلة ، على أنه لم يَعِشْ طويلا فى البصرة ، وقيل مات أيام عمر .

فماذا أزعم لهذا الشاعر من أثر فى المصر الجديد ؟ لا شىء أكثر مما

---

(١) كان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس لحسن شعره ، وقال عنه أبو الأسود الدؤلى : كان من أفصح أهل زمانه (طبقات الفحول ١٣٤ ط . دار المعارف) الأغانى ١٩ : ١٥٧ ؛ الشعر والشعراء ٢٦٨ (ط . الحلبى سنة ١٣٦٤) .

أزعمه لِعُتَيْبَةَ بن مِرْداس الذى مدح ابن عباس فلم يُجزْه والذى قال عنه أبو الفرج « شاعر مُقِلٌّ غير معدود فى الفحول[١] » أو المخَبَّلُ أبو يزيد الذى عاش معظم حياته فى الجاهلية وهاجر إلى البصرة فظلَّ فيها إلى أن مات فى خلافة عثمان[٢].

على أننا نرى أحياناً إزاء هذه الفئة من الشعراء ، آخرين صاغوا فى حياتهم الجديدة بالبصرة قصيداً لم يختلف عن قصيد الجاهليين . من هؤلاء أبو الأسود الدؤلى ، وحارثةُ بنُ بدر ، ومالك بن الرَّيْب . وإن يكن ثمةَ من لَوَّنَ شعره أحياناً بمظاهر الحياة الجديدة كابن مفرِّغ والحضين بن المنذر . ولكنَّ الجميع كانوا جاهليين — فى أكثر فنهم — تفكيراً وديباجة .

فأما أبو الأسود فهو يمثل اتجاهاً سياسيًّا عُدَّ غريباً من أول الأمر فى المصر ؛ فهو شيعى مع أنه مضرى ، واتجاهه الشيعى يحدِّد موقف تميم منه نهائيًّا ، وهذا يفسر عِداءَ البصريين له وتعصُّبَ الأمويين ضِدَّه . ويصوِّر أبو الفرج هذا الشاعر تصويراً عجيباً . فهو تابعىٌّ فقيهٌ محدِّثٌ بخيلٌ فارسٌ داهيةٌ شريفٌ أصلع ، ويحفظ لنا أشعاره التى يتشيَّع بها ويهجو فيها زياد بن أبيه[٣].

هذا الشاعر سواء أكان منصرفاً إلى المنافحة عن موقفه السياسى أم إلى شئونه اليومية ، يُعطى نَمَطاً لا يختلف فى شىء عن أنماط الجاهليين ؛ فثمةَ فصاحةٌ تَسِمُ ألفاظَه ، ومتانةٌ تُميز عباراته ، إحساسٌ قويٌّ باللغة كان — لا شكَّ — من الأسباب التى جعلته أحد الذين يُسْهِمون فى وَضْع أسس النَّحْو[٤] ، ولنَسْمَعْه على أيَّة حال يقول :

---

(١) الأغانى ١٩ : ١٤٣ ، البيان والتبيين ١ : ١٩٢

(٢) خزانة الأدب ٢ : ٥٣٦ ، الإصابة ٢ : ٢١٨ ، ٢١٩

(٣) الأغانى ١١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥

(٤) السابق ١١ : ١٠١

وأهْوَجَ مِلحاح تَصَامَتُ قَبْلَهُ إلى سَمْعِهِ وما بِسَمْعِيَ من باسِ
ولو شئت قد أعرضتُ حتى أصيبه على أنْفِهِ حَدْباءَ تعضل بالآسِ
فإنَّ لسانى ليس أهْوَنَ وقعةً وأصْغَرَ آثاراً من النَّحتِ بالفاسِ

ويقول :

لَعَمْرى لقد أفشيتُ يومًا فخانني إلى بَعْضِ من لم أخْشَ سِراً ممسُنَّعا
فزَقّه مزْقَ العَمَى وهْو غافلٌ ونادى بما أخفيتُ منه فأسمعا

ويقول فى أحد الهذليين ويدعى أبا الجارود :

أبلغْ أبا الجارود عنى رسالةً يروح بها الغادى لِرَبْعِكَ أو يغدو
فيخبرَنا ما بالُ صَرْمِكَ بَعْدَ ما رضيتَ وما غيرّت من خُلُقٍ بعدُ
لئن كنت قد أزمعتَ بالصَّرْمِ بيننَا لقد جَعَلتْ أشراطُ أوَّلِهِ تبدو
فإنى إذا ما صاحِبٌ رثَّ وَصْلُهُ وأعْرَضَ عنى قَلَّ منى له الوجدُ

ومن المؤكد أن روح تلك الأبيات جميعاً تدل على أنها إسلامية ؛ فديباجتُها تمسح عليها دماثةٌ عذبةٌ ، إلا أن الصياغة بمتانتها تربطها بذلك الشعر الذى أَلِفَتْهُ الجاهليةُ . فالعبارات موجزة لا حَشْوَ فيها ، والكلمات فصيحة ذات رنين قوى ، وأمثال « ملحاح وتصامت وحدباء ولعمرى ومزّق وصرمك ورثّ » مما يبنى بناء قديمًا ، أعنى مما يصوغ صياغة عتيقة ، ويدل على صنعة محكمة قوامها مراسيم تقليدية وتراكيب ترتبط بنماذج متداولة منذ بعيد !

مبنى الشِّعر إذن عند أبى الأسود قديم ، وهو كذلك حتى فى تلك القصائد والمقطعات التى يصوّر بها ما يعرض له من أسباب معيشية مختلفة ، وقد نرى آيات ذلك حين نأخذ أنفسنا بمناقشة المحتوى بعد قليل .

فإن اخترنا بعد أبى الأسود شاعراً آخر ، لا نكاد نحس خلافًا فى الصياغة ، بل سنجد هذا الطابع الجاهلى الذى يطبع شعر الأولين عادة ، وأمامنا مالك بن الرّيْب مَثلا فَرْديًّا ثانيًا ، وقد نستطيع أن نكتفى بما يُرْوَى

عنه أنه ولد ونشأ فى بادية بنى تميم بالبصرة[١] إلا أنّ من تمام الفائدة أنْ نقرأ له تلك الأبيات التالية التى يرويها لنا أبو الفرج :

تَـأَلَّى حِـلْـفَـةً فى غير جُـرْمٍ ... أميرى حارثٌ شبهُ الضِّرارِ
علىّ لأجْـلَـدَنْ فى غير جُـرْمٍ ... ولا أدْنَى فينفعنى اعتذارى
وعنْسٍ ذاتِ مَـعْـجَـمَـةٍ أمونٍ ... علنـدات موثَّـقـة الفـقـارِ
تَـزِيف إذا تواهقتِ المطايا ... كما زافَ المشرّف للخِطارِ
وإن ضَرَبَـتْ بِـلحيَـيْـها وعامت ... تَـفَـصَّم عنهما حلقُ السِّفارِ[٢]

والأبيات بَـعْـضُ قصيدة أنْـشَـدَهـا مالكٌ وقد تَوَعَّدَه أحدُ عمالِ الدولة بالموت بعد أن فَـشَـا شَـرُّه ؛ فقد كان لصًّا يعتدى على الناس بعصابة كوَّنها مع شظاظ التميمى ، وأبى حردبة المازنى ، وغويث الحنظلى ! وهى نمط استوى له كل ما تهيَّأ للقصيد الجاهلى من فصاحة وغرابة وإحكام ، وتتحد ألفاظها وأساليبها فى إطار بدوى لا يمكن فَـصْـلُـه عن أىِّ إطار قديم مُـبَـرَّأ من التكلُّف منزَّه عن الاختلال .

والواقع أنا نطيل — بغير غناء — لو أنَّا بسطنا فى ذلك غيرَ ذلك ، فشعراء هذه الحقبة — حتى يزيد بن مفرّغ — قادرون على الكلمة مدربون على تنقيح عبارتهم . وهم فى تصفية أساليبهم يثبتون دائمًا أنهم تعودوا حذف فضول الكلام وألِـفُـوا إسقاط مشتركات الكلمات . وبألفاظهم المؤنقة بإيقاعاتها المتناسبة الفخمة فى البيت ، لا يقدمون صورة معقدة ولا خيالاً مُـبْـهَـمَ المعالم . فأبو الأسود الخؤلى لا يكادُ يقدّم فى كل شعره — وما سقتْ بعضُ دليل — صوراً

---

(١) الأغانى ١٩ : ١٦٣

(٢) تألى يتألى : حلف ، والألوةوالألية (فعيلة) اليمين ، والجمع ألايا . والعنس الصخرة والناقة القوية شبهت بها ، ذات معجمة : ذات صبر وصلابة، أمون : وثيقة الخلق تأمن العثار والإعياء ، علندات : غليظات ، تزيف : تسرع ، تواهقت : تبارت فى السير أو تسايرت، المشرف : كالشارف من الإبل وهى الناقة ولا يقال للجمل شارف الخطار : وقع ذنب الجمل بين وركيه (تاج العروس ٦ : ١٥٣) .

لافتة ، بل هو لا يستعين بالصورة استعانته بتقريرية التعبير ، وإن قدّم شيئًا منها قدّمه فى سذاجة وفى أسلوب جاهلى معروف ، يقول فى حبه لآل علىّ :

هوى أعطيتــه لما استدارت رَحى الإسلام لم يَعْدِلْ سويا

ويقول متحسراً على الشباب :

أفْنَى الشبابَ الذى فارقْتُ جِدّتَه كرُّ الجديدَيْن من آتٍ ومنطلق

وأما مالك فكلُّ تخطيط صُوَرِه قديم ، ووصْفُه للنوق لا يخرج عن وصف الأولين ، ويتسع هذا الحكم فيشمل غيره هو وغير أبى الأسود . وإذا مقدرةُ الجميع على خلق « المثل الجاهلى » فى أداته وفى صورته وفى إيقاعه الموسيقىّ تبلغ حدًّا يرضى أصحاب القديم ، بل بلغ هذا الرّضَى أقصاه حين ألحوا على « الصور اللفظية » التى وقعت كثيراً فى شعر الأولين ، فأبو الأسود يقول :

ألا أبلغا عنى حُصَيْنًا رِسالةً فإنّكَ قد قَطَّعْتَ أخرى خلالكا

ويقول :

أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التعبُّس وإن كان منكِ الجد فالصرم موئسى

ومالك بن الريب يقول :

إذا ما حالَ روْض ربابَ دونى وتثليث فشــأنك بالبكارِ

وأبو حزابة الذى يوصف بالفصاحة[1] يقول :

ألا أبلغْ معاويةَ بنَ حربٍ مُغَلْغَلَةً من الرجُلِ اليمانى

فمن تلك الأبيات تطلُّ هذه الصور اللفظية التى اعتدنا أن نراها عند الجاهليين ؛ فالأداة الاستفتاحية « ألا » والفعل ، والالتفاتُ فى استعمال

---

(١) الأغانى ١٩ : ١٥٢

الضمائر كما نرى فى البيتين الأول والثالث ، وبناء البيت الثانى على نسق بيت امرىء القيس :

أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التدلُّل فإنْ كنتِ قد أزمعتِ صرمى فأجملى

كل ذلك يؤكد العلاقةَ القويةَ بين بيت الشعر الإسلامى وبيت الشعر الجاهلى ، وهذه العلاقة لا تنبتّ بوجود شاعر كابن مُفَـرّغ أصاب شعرَه ضعف النسيج اللغوى باستعماله لغة العامة فى شعره ، بل لقد قال شعراً بالفارسية حين طيف به فى أزقة البصرة مخموراً والأطفال يصيحون من ورائه على ما رأى زياد ابن أبيه فى معاقبته ويقولون : أين جست ؟ أى ما هذا . فأجاب[1] :

آبَسْت ونبيذ اسْت
عُصَارات زبيبَسْت
سُـمَيَّه روسبيداست

مع ذلك فلدى هذا الشاعر مقطعاتٌ وقصائد ليست دون شعر زملائه قوة وبياناً ، وقد أعجب بها ابن قتيبة فسجلها فى كتابه « الشعر الشعراء » .

من كل ذلك نرى أنّ الصورة العامة للشعر العربى فى البصرة حتى هذه المرحلة من التاريخ كانت صورة قديمة جهد صاحبُها أن يجعل لها التراث الجاهلى مثلا ، مما يدلّ على أنه كان طليل النظر فى هذا التراث ، وبيت امرىء القيس الذى سلخه أبو الأسود إياه شاهد ، كما أن قوله فى هذا الشطر « أغرّكَ منها أن نحرت حوارها[2] » يشبه قول امرىء القيس صياغة وإيقاعاً « أغرك منى أن حبك قاتلى » فيكون ذلك شاهداً آخر ، فلا غَرْوَ بعد أنْ نفهمَ سرَّ قولهِ فى تنقيح شعره :

---

(١) الشعر والشعراء ٣٢٠ ، البيان والتبيين ١ : ١٠٩ بتحريف طفيف ، والمعنى : هو ماء ونبيذ ، وعصارة زبيب ، سمية ذات وجه أبيض ، يعنى شريفة فكأنه يتهكم !

(٢) الأغانى ١١ : ١١٠ والحوار ولد الناقة قبل أن يفصل عنها .

فكم شاعر أرداه أن قال قائل له فى اعتراضِ القول : إنك شاعر
عطفت عليــه عطفةً فتركته لما كان يرضى قبلهــا وهو حافر
بقافيــة حذّاءَ سهل رَويها للقول أبواب ترى ومحاضر[1]

* * *

غير أن هذا الالتزام الشكلى وما صاحبه من تقليد ، لم ينحرف بالشاعر عن حياة عصره ، فعبّر شعره عن كثير مما اضطرب فيه ، ويحسن قبل أن نقف عند شعر الفحول — وهم آخر الأجيال العربية فى البصرة — أن نتعرض للمحتوى الذى سَجَّلَه أمثال أبى الأسود وابنِ مُفَرِّغ ، ولا سبيلَ هنا إلى تَقَصِّى الشواهد ؛ فهى أوضح من أن نطيل عندها وقوفًا .

فأما الدؤلى فهو من غير شك بشعره ذى المنحى الأخلاقى — وهو كثير جداً — يقرّبُه كثيراً من الأحنف بن قيس بأقواله الوعظية وبأقوال غيره ممن مثلوا الجانب المحافظ من حياة البصرة الأولى ، ولكنّ له قصائدَ سياسيةً ومقطعات تصوّر حالات كان يتعرض لها .

فى السياسة ، نستطيع أن نقرأ له تلك الأبيات التى يهاجم بها بنى قشير التميميين ويقول فيها :

يقول الأرذلون بنــو قُشَيْر طَوالَ الدهر لا تنسى عَلِيًّا
فقلت لهم وكيف يكون تَرْكى من الأعمال مفروضًا عَلَيًّا
أحبُّ محمــداً حُبًّا شديداً وعبّاسًا وحمــزةَ والوصيًّــا
بنى عَمِّ النبىّ وأقْــرَبِيــه أحب النــاس كلهم إليًّا[2]

كما نقرأ نونيته التى يهاجم فيهامعاوية ويمتدح الحسن بن علىّ وقد راسله

---

(١) الأغانى ١١ : ١١٥ وسنرى دائماً شعراء عصر التقليد فى البصرة وفى غير البصرة يصنعون صنيع أبى الأسود ، كذى الرمة (انظر الموشح ١٣) وكسويد بن كراع البصرى (انظر الشعر والشعراء ٢٣) والحذاء مقطوعة الوتد ، والحذو على أجزاء القافية حركة الحرف قبل الردف ، والحذذ حذف الوتد المجموع كله .

(٢) الأغانى ١١ : ١١٣

ليأخذ له البيعة بالبصرة فوشى به قومٌ عند معاوية ، يقول فيها :

ألا أبلغْ معـــاوية بنَ حربٍ فلا قَـرَّتْ عيـــون الشامتينـــا
أفى شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طرًّا أجمعينـــا
إذا استقبلت وجه أبى حسين رأيتُ البـــدر راق الناظرينـــا
لقد علمت قريش حيث حلَّت بأنك خيرها حَسَبًا ودينـــا[1]

وفى غير السياسة والأخلاق نرى الشاعر خفيفًا يثير الضحك ، ونعجب بروحه التى تبعد عن أن تكون لشخصية سوية ، بل ربما ظننا فيه الظنون ، ورميناه فيها بالنزق والظرف ، يقول فى جارية حَوْلاء :

يعيبونها عندى ولا عيب عنـــدها سوى أنَّ فى العينين بعضَ التأخُّرِ
فإنْ يك فى العينين سوءٌ فإنها مهفهفة الأعلى ، رَدَاح المؤخَّرِ[2]

وفى قريب له سيىء الخلق :

بليت بصاحب إن أدْن شِبْراً يَزِدْنى فى مبـــاعدة ذراعا
وإن أمددْ له فى الوَصلِ ذَرْعى يزِدْنى فوق قَيْس الذَّرْع باعا
أبت نفسى له إلا اتّبـــاعا وتأبى نفسُه إلا امتنـــاعا
كلانا جاهدٌ . . أدنو وينـــأى فذلك ما استطعتُ وما استطاعا

هكذا صوّر أبو الأسود حياته فى شعره ، فإن اختَرنا غيره ازدحمت نماذج الكثيرين ، ووثب أمامنا شعرُ ابن مفرّغ الذى قصره — فى الغالب — على هجاء آل زياد . فلو أضفنا إليه شعر أبى الأسود ومالك بن الريب وعمران بن حطان استطعنا أن نشكل موقفًا عدائيًّا للقوة الأموية الحاكمة . وطبيعى أن تختلف حوافز الخصومة عند كل شاعر ، فهى عند أبى الأسود وأبى حزابة وعمران عقيدية وهى عند مالك اجتماعية وقد كان لصًّا يعبث بالأمن العام ، وهى عند ابن مفرّغ سوء فهم وكراهية شخصية متبادلة !

---

(١) الأغانى ١١ : ١١٧ ، وفى صفحة ١٠٨ من الجزاء نفسه أبيات فى هجاء زياد بن أبيه وكان يسبه لتشيعه .

(٢) نفسه ١١ : ١٠٥

ويكفى هنا بعضُ شعر لأبى حزابة ذلك التميمى الذى خرج مع ابن الأشعث وبه نرى كيف كان يناصب الأمويين العداء ، وفى يزيد بن معاوية يقول :

فوالله لا آتى يزيدَ ولو حَوَت ... أناملُه ما بين شرق إلى غَرْب
لأنَّ يزيداً غيَّر اللهُ ما به ... جَنَوحٌ إلى السَّوأى مُصِرٌّ على الذنب
فقُلْ لبنى حرب تَقَوُّا اللهَ وحدَه ... ولا تُسعدوه فى البطالة واللعْب[1]

وفى اهتمامه بقومه تميم يقول هاجيًا أحَدَ عمال الأمويين وَعَدَهُ بعطاء ولم يعط :

إنى نذيـــر بنى تميـ ... ـم من أخى قيلٍ وقال
من لا يجـــود ولا يسو ... دُ ولا يجيرُ من الهزال
وتراه حين يجيئـــُه السـ ... ـؤَّالُ يولع بالسعال
متشـــاغلاً متنحنحًا ... كالكلب جمَّعَ للعَظَال[2]

كما يكفى أن نسوق من شعر عمران بيتين يصوّر بهما حال أصحاب الفرق ، وما هم فيه من قلق يريدون الحدّ منه بالخروج ، يقول :

أخاف عقاب الله إنْ مُتُّ راضيًا ... بحكم عبيد الله ذى الجَوْر والغَدْر
وأحْذَرَ أنْ ألقى إلهى ولم أرعْ ... ذوى البغى والإلحاد فى جحفل مجْرِ[3]

وبعضَ أبيات لحارثة بنِ بدر اختَرتها من ذلك الذى شُهِر به ذلك الشاعر ؛ فقد كان على النقيض من أبى الأسود رجُلَ دنيا يحبُّ اللهو ويعشق الخمر ، ويتحدى بشعره الماجن الأحنف بن قيس — وهو تميمى مثله — وبذلك يكون حارثة أبا المجون الفنى الذى سيظهر بشكل أوسع عند المجددين . يقول بدر وقد رأى الناس يعيبون عليه إدمانه :

---

(١) الأغانى ١٩ : ١٥٤

(٢) نفسه ١٩ : ١٥٥ ، والعظال الملازمة فى السفاد من الكلاب وركوب بعضها بعضا

(٣) أنساب الأشراف ٤ : ١٩٥

يعيب علىّ الرَّاحَ من لو يذوقها ... لجُنَّ بها حتى يُغَيَّب فى القبرِ
فدَعْها . . أو امدحها فإنَّا نحبُّها ... صُراحًا كما أغراك ربُّك بالهجر
علام تذمُّ الراحَ والراحُ كاسمِها ... تريح الفتى من همِّه آخرَ الدهر
فلُمْنى فإنَّ اللَّوْمَ فيها يَزيدنى ... غرامًا بِها إنّ الملامةَ قد تُغْرى
وحقٌّ لمثلى أن يكفَّ عن الخِنَى ... ويقصُرَ عن بعض الغِواية والنُّكْر (١)

وقال بعد أن عاتبه ابن الأحنف :

يذُمُّ أبو بحر أموراً يريدُها ... ويكرهها للأريحىِّ المُسَوَّدِ
فإن كنتَ عيَّابًا فقُلْ ما تريدُه ... ودعْ عنك شربى لستُ فيه بأوحدِ
سأشربها صهباءَ كالمسك ريحُها ... وأشربُها فى كلِّ ناد ومشهدِ
فنَفْسَكَ فانصحْ يابن قيس وخلِّنى ... ورأيى فما رأيى برأى مُفَنَّدِ (٢)

والأبيات أوضح من أن أقول إنها تكشف عن الجانب السيىء من حياة المصر ، عن انطلاق الناس وراء الشهوات ، وعن فجورهم الذى أثار عليهم ابن أبيه منذ عهد مبكر ، وكأن حارثةَ كان بعض هؤلاء الذين حمل عليهم زيادٌ لِشَرِّهم ، وكم كان جريئًا حين صرّح للأحنف بأنه لم يكن وحده مُدْمن الخمر ، ولم يكن يخاف أحداً وهو يشربها فى كل مكان !

ولقد رَصَدَ أبو الفرج فى أغانيه لكثير من خمريات حارثة ، فدلَّل على أن هذا الفن ليس مستورداً من الخارج ، وعلى أنه صاحبَ حياة المجون التى سادت البصرة . والعجيب أن زياداً نفسه وابنه كانا يرضيان عن مسلكه ! بل ربما نوقش فى حضرتهما فى أنواع الشراب ، وربما استمعا إلى هجائه فى خصمه — الماجن الآخر — أيس بنِ زنيم الليثى (٣) الذى كان ينصحه بقوله :

---

(١) الأغانى ٢١ : ٢٧

(٢) نفسه ٢١ : ١٧

(٣) راجع الأغانى ٢١ : ١٥ ، ٢٢ ، ٢٨ ، وفى الحيوان ٥ : ٢٥٥ أنس بن أبى إياس وفى المؤتلف والمختلف ٥٥ أنه شاعر مشهور حاذق

أحارِ بنَ بدرٍ باكر الرَّاح إنهـا تُنَسِّيك ما قدَّمتَ فى سالف الدهر
أليس عظيمًا أن تكابدَ حُـرَّةً مهفهفةَ الكشحَيْن طيبةَ النشر

وبقوله الساخر :

فدع عنك شُرْب الخمر وارجع إلى التى بها يَرْتضِى أهلُ النباهة والذِّكر
عليك نبيذَ التَّمر إن كنت شاربًا فإنَّ نبيذ التَّمر خيرٌ من الخمرِ[1]

وأما أبو الأسود ، فقد كان أشَدَّ سخرية بالشاعر من زميله الماجن ، فقال بعد أن ولاّه زياد كورةً :

أحار بن بدر قد وَليتَ إمارة فكن جرَذاً فيها تخونُ وتسرق
ولا تحقرن يا حار شيئًا تصيبه فحظك من مُلكِ العراقين سُرَّق[2]

وكان علقمة بن معبد المازنى قد كتب إلى الأمير بعد أن أرسل — هذا الأمير — إلى حارثة يحثه على جباية الخراج :

ألم تَرَ أنَّ حارثةَ بنَ بدر يُصلى وهو أكْفَرُ من حمار
وأنَّ المال يعرف من حَوَاه ويعرف بالزوانى والعُقَار[3]

وهكذا كان شعر هذه الفترة من التاريخ — كشعر حارثة وعلقمة وأنس — يرسم صوراً لحياة متنوعة ، فاضلةً أحيانًا وطائشة أحيانًا أخرى ، قارّة هادئة مرة وقلقة مضطربة مرة أخرى .

---

(١) الأغانى ٢١ : ٢٣

(٢) سرق إحدى كور الأهواز ، ونحن نستبعد أن يكون أبو الأسود صاحب هذا الشعر ، وقد نسبه الجاحظ لأنس بن أبى إياس فى الحيوان ٥ : ٢٥٥ ، وأورد بعد البيت الأول قوله :

وباه تميما بالغنى إن للغنى لساناً به الهيوبة ينطق

(٣) الأغانى ٢١ : ٢٠ وما بعدها ، وحمار رجل هلك من كفار عاد ، والعقار الخمر سميت كذلك لأنها عاقرت العقل أى لزمته

عصر الفحول الأمويين :

هؤلاء الشعراء الذين ذكرتُ كانوا روّاداً للفحول — على وجه ما — وإن لم يَبْلغوا فحولتهم قط ، ولهذا آثرت أن أخُصَّ عصر جرير وزملائه بمناقشة مستقلة .

والكلام عن الفحول يقصد به أربعةٌ أولهم جرير ، ثم الفرزدق فذو الرمّة فالراعى . وغيرهم كان يسير فى الركاب تابعًا ، وربما كان ثمّةَ من حاول الالتحام فى المعركة التى نشبت بين عملاقى تميم فأخمِل ، كمرة بن مَحْكان التميمى الذى مثل فى عصره شعر البداوة ، وربما كان ثمة من شَرُف بالانتساب فقط إلى العصر كالعديل المحمق الذى ينتمى إلى فرع ربعى والذى صادق الفرزدق فرثاه حين مات [١] .

وما أظن أن يتسع المجال هنا لدراسة كل شعر هؤلاء . فإن مناقشة نقائض جرير والفرزدق وحدَهما تستطيع أن تملأ أكثر من كتاب كهذا الكتاب ، فما النا بقصيد غيرهما [٢] ؟

لهذا كان من الضرورىّ أن نمُرَّ عجلين ، ونقف عند المعالم الكبرى ، ثم نقول بعد ذلك إن شعر الفحول كان تقليديًّا بكل ما فى التقليد من قيم . وهم حاولوا — بحقٍّ — الاقتداء بالأوائل فى كثير من عباراتهم حتى حصلوا على التوعير والإغراب !

ومنهم — كالفرزدق — من تَعَسَّفَ ما قدر وتغلغل فى التصَعُّب ما استطاع ، حتى أرضى عنه العلماء ، فكان شاعر الخاصّة الذى لا يعنيه إلا الأسلوب الفخم والعبارة القوية ، واللفظة الغريبة . ولقد رصد لذلك كله

---

(١) راجع الأغانى ٢٠ : ٩ ، ١٩

(٢) روى أنه كان ينهش جريراً ثلاثة وأربعون شاعراً نبذهم جميعاً وراء ظهره ، وقال جرير نفسه : والله ما يهجونى الأخطل وحده ، وإنه ليهجونى معه خمسون شاعراً كلهم عربى ليس بدون الأخطل (الأغانى ٧ : ٣٧) .

من الحمل على القريحة ، ما صار به شعرُه بعيداً عن القلب قريبًا إلى العقل . وربما لو قيس به شعر جرير — وقد ترقق فيه — تَبَيَّنَ فيه اللينُ حتى ليظنه بعضنا ضعفًا ، وحتى ليجمع القومُ على أنه نزل به إلى العامة فكان شاعرهم .

ولا تعنينا الموازنة الآن ، فغاية ما نريد أن نذكر أن الحقبة التى أطلق عليها « عصر النقائض » كانت تمثل المدرسية تمثيلا صادقًا ، بحيث يمكن بسهولة أن نضع وراء كلِّ شاعر أموى جاهليًّا رَحَلَ !

وقد افتخر الفحول أنفسهم بتلمذتهم على قدماء ، فدللوا على أنهم كانوا ذوى بصر بالقديم . والروايات التى تحدد ملامح تلك التلمذة الواعية موفورة ، بل ربما قررت أنهم كانوا يُستفتون فى أقدار الأولين ، فأحدُ أعقاب جرير يقول : « قال عبد الملك أو الوليد ابنه لجرير : من أشعرُ الناس — قال — فقال ابن العشرين[١]! قال فما رأيك فى ابنى أبى سلمى ؟ قال : كان شعرهما نيرًا يا أمير المؤمنين ! قال : فما تقول فى امرئ القيس ؟ قال : اتخذ الخبيث الشعر نعلين وأقسم بالله لو أدركته لرفعت (له) ذلاذله[٢]قال : فما تقول فى ذى الرمة ؟ قال قَدَرَ من طريف الشعر وغريبه وحسنه ما لم يقدر عليه أحد »[٣] .

فلا غرْوَ أن يُسلك نقادُ العصرِ كل شاعر أموى فى مدار جاهلى ، فجرير فى رأى أبى عمرو بن العلاء يشبه الأعشى والفرزدق كزهير والأخطل مثل النابغة[٤] .

والواقع أن العلماء كافة كانوا يرسمون على ضوء هذه النظرة التصنيفية سبل الشعراء الفنية ، ويريدونهم على ضرب من التأمل النظرى أكثر مما يريدونهم على وصف حالاتهم وعواطفهم .

---

(١) يعنى طرفة بن العبد

(٢) الذلاذل أسافل كل قميص طويل ، والواحد ذلذل

(٣) الأغانى ٧ : ٥٦

(٤) الأغانى ٧ : ٣٦

وتعيش هذه المدرسة شامخة إزاء الجاهليين وينتصر مذهبها على مذهب المحدثين حتى ليبدو أمام الجميع أنّ شعرها خيرٌ من الشعر العباسى ، ثم خيرٌ من أى شعر جاء بعدَه . لذلك زعم قومٌ « أن ساقة الشعراء رؤبةُ وابنُ هَرْمة وابن ميادة والحكم الحضرى ، فإذا انتهى إلى مَنْ بَعدَهُم كبشار وأبى نواس وطبقتهما سُمِّى شعرُهُم ملحًا وظرفًا . واستُحْسِنَ منه البيْت بعد البيت استحسانَ النادرةِ وأجراه مجرى الفكاهة»[١] .

ولقد كان لأخْذ القصيدة الأموية صورة القصيدة الجاهلية فى تفاصيلها ما حدا بعلماء القرن الثانى والثالث إلى أن يقولوا مثل ما قال ابن قتيبة « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين » ويحدد هو هذا المذهب فى خطوطِه الكبرى بتدرج القصيد من ذكر الديار والدمن واستيقاف الرفيق إلى النسيب وذكر الصبابة والشوق ، ثم إلى رحلة الشعر وسُرَى الليل فيه وحرّ الهجير حتى يوجبَ حق الرجاء فيكون المدح . أما التفصيل فإنه يكون باستخدام العناصر الفنية القديمة ، حتى ليخطئ من يقف على منزل عامر ومن يرحل على حمار ومن يرد المياه الجوارى ومن يقطع إلى الممدوح منابتَ الورد والنرجس والآس[٢] .

وقد ينبغى أن نرصد ما قيل فى الفحول قبل أن نعرض ما نريد فى هذه الدراسة ، وذلك أن كثيراً من أقوال القدامى يعيننا على شق الطريق. على أن يراعى أن هؤلاء لم يكونوا فى درجة واحدة من التفوق والظهور ، وتفاوتوا فى الترتيب بقدر ما كان فى شعرهم من بداء وخشنة ورصانة ، إلى جانب تنوعه وتعدد ضروبه .

أما جرير والفرزدق والراعى ففى أولى الطبقات الإسلامية مع الأخطل . واعتدهم ابنُ سلام جميعًا متكافئين متعادلين ، وبدأ بالفرزدق ثم عقب

---

(١) الوساطة ص ٤٩

(٢) راجع الشعر والشعراء ٢٠ وما بعدها

بجرير ، وختم بالراعى[١].

وأما ذو الرمة والبَعيث ففى درجةٍ واحدة بغضِّ النظر عما يمتاز به الأول من ضروب التشبيهات التى حسده من أجلها كل من جرير والفرزدق[٢].

وأما عمر بن لجأ البصرى فلا يتأخر عن الكبار عند ابن سلام ، ومن ثم فهو يضعه فى الطبقة الرابعة الإسلامية[٣]، فى حين يتأخر مزاحم العقيلى عنده فيكون أحد الأربعة من الطبقة العاشرة[٤]. وقد جاء أبو الفرج من بعده ، فاحتفى به وقال عنه إنه شاعر فصيح إسلامى وصاحب رَجز ، وذكر أن جريراً كان يقرّظه ويقدمه[٥].

وأما العجاج ورؤبة فهما اثنان من الأربعة الذين يكوّنون الطبقة التاسعة فى الإسلام[٦]، ويبدو أن تأخرَهما عند ابن سلام راجعٌ إلى اشتغالهما بالرجز ، والرجزُ عند العلماء دون القصيد .

وثمة شعراء لا يعرض لهم ابن سلام — وهو أول بصرى يضع أول كتاب فى طبقات الشعراء أواخر القرن الثانى — ولكن أسماءهم تتردد وأشعارهم ترتفع من بين حين وحين . وكان من هؤلاء مسكين الدارمى ، ومرة بن محْكان الذى أشرنا إليه ، وجرير بن خرقاء العجلى شتام بكر بن وائل ، وغسان السليطى ، والسرندى الذى كان يُعين ابنَ لجأ على جرير ، والعباس بن يزيد الكندى ، وهشام المرى ويزيد بن الحكم الذى يقال إن الفرزدق سمع بعض شعره ، فقال : كأن شعره شعرنا[٧]، يريد أنه فى مستواه وفى رصانته وقوة أسره .

أما ما قيل فى المشهور منهم فكثير ، إلا أنه يدور فى أغلبه حولَ تحقيق

---

(١) طبقات الفحول ٢٤٩ وما بعدها
(٢) الأغانى ١٥ : ١٠٨
(٣) طبقات الفحول ص ٤٩٥ ويقال له ابن لجأ (بالحاء) من بنم يتم بن عبد مناة
(٤) طبقات الفحول ص ٥٨٣
(٥) الأغانى ١٧ : ١٥٠
(٦) طبقات الفحول ص ٥٧١
(٧) الأغانى ١١ : ٩٦

المثل الجاهلىّ فى المبنى ، فالفرزدق يقول عن نفسه وعن جرير « إنى وإياه لنغترف من بحر واحد وتضطرب دلاؤه — أى دلاء جرير — عند طول النهز »[١]. كأنه أراد لِينَ خَصْمِهِ فى اللفظ ، وقد وُصف شعرُه — أى شعر جرير — بالرقة مع ذلك ، فى حين وُصِفَ شعر الفرزدق بالصلابة[٢].

ويقول عنه ابن قتيبة البصرى « كان معنًّا مِفَنًّا »[٣]، والمِعَنُّ الشَّخْصُ ذو العَنَن والاعتراض ، يريد أنه فصيح يدخل فى كل شىء ، وقد وصفه خالدُ بنُ صفوان بفصاحة اللسان وقال عنه شَبَّة بن عقال إنه ينحت من صخر[٤]، وقال يونس بن حبيب : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب »[٥].

وأما جرير فإن ابنه عكرمة سأله عن شاعر الجاهلية فذكر زهيراً « قال قلت : فالإسلام ؟ قال الفرزدق نبعة الشعر ! قلت : فالأخطل ؟ قال : يجيد مدح الملوك ويصيب صفة الخمر ؛ قلت : فما تركت لنفسك ؟ قال : دعنى فإنى نحرت الشعر نحراً »[٦] كأنه يريد قتل الشعر استمكانا منه واقتداراً عليه.

وأما الراعى فقد قالوا عنه إنه كان فحل مضر ضَغَمَهُ الليْثُ يريدون جريراً ، فى حين أن البعيث وُصف بأنه شاعر فاخر الكلام حرّ اللفظ[٧]. وقال الفرزدق عن شعر العديل على نحو ما رأينا : كأنه شعرنا ! وقال ذو الرمة عارضًا لمزاحم العقيلى : « إنه يقول وحشيًّا من الشعر لا يقدر على مثله أحد »[٨].

---

(١) طبقات الفحول ص ٣١٨ وفى الأغانى (النهر) ٧ : ٣٨
(٢) الأغانى ٧ : ٣٩
(٣) الشعر والشعراء ص ٤٤٥
(٤) الأغانى ٧ : ٦٩
(٥) الأغانى ١٩ : ٤٨
(٦) طبقات الفحول ٥٤
(٧) طبقات الفحول ص ٤٣٥ ، ٤٥٢
(٨) الأغانى ١٦ : ١٥٣

وكل ذلك يدل على أن شعر الفحول وجه من قبل الأذواق توجيهاً محافظاً ؛ فكانت بداوة الأسلوب أكبر ما يربط شعر البصرة فى تلك المدة بالأدب الجاهلى . وكان اللغويون يعينون على ذلك كما قدمنا حتى إنّ أبا عمرو بن العلاء يتحرج فى رواية شعر جرير ويقف عند ذى الرمة مختتماً به الشعراء[١]. وكان يونس بن حبيب يقدّم الفرزدق على غير الفرزدق ويقدمه المفضل تقدمة شديدة ، وقال يونس عن رؤبة والعجاج : « هما أشعر أهل القصيد ، إنما الشعر كلام فأجوده أشعره »[٢].

ونستطيع بعد هذا الاستقراء أن نعود إلى شعرهم لنرى مصداق قولهم ، وسنلحظ فى عنايتهم بانتقاء الألفاظ الرصينة الدليلَ على تحقيق لوْن من ألوان المثل الجاهلى ، فضلا عن أن قوة العبارة تربطهم بعجلة الأولين ، يقول جرير :

ويوم من الجوزاءِ مستوقدِ الحَصى ... تكادُ صَياصِي العَيْنِ منه تَصيَّح
شديدِ اللظى حامى الوديقة ريحُه ... أشدُّ أذًى من شمسه حينَ تصْمَحُ
بأغبرَ وهّاج السموم تَرَى بِه ... دُفوف المهارَى والذَّفارَى تُنَتَّح
نصبت له وجهى وعَنْسًا كأنها ... من الجهد والإسئادِ قِرم مُلَوَّحُ[٣].

ويقول الراعى فى إضافة رجل ذاتَ ليلةٍ من سَنَةٍ حَصَّاء :

بكى مُعْوِزٌ من أن يلام وطارقٌ ... يَشُدُّ من الجوعِ الإزارَ على الحشا
فطأطأتُ طرفى هل أرى من سَمِينَةٍ ... تدارك فيها نَىٌّ عامين والصَّرى
فأبصرتها كوماءَ ذاتَ عريكةٍ ... هِجانامن اللاتى تمتَّعنَ بالصَّوَى
فأومضتُ إيماضًا خَفِيًّا لحبترٍ ... ولله عينا حبترٍ . . أيُّما فتَى[٤]

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٥٧٨

(٢) خزانة الأدب ١ : ١٧٣

(٣) الديوان ص ١٠٩ وصياصى : قرون ، الوديقة : أشد الحر ، تصيح : تشقق ، تصمح : تحرق ، دفوف : جنوب ، تنتح : تسيل عرقاً ، الإسناد : سير الليل ، ملوح : كال

(٤) طبقات الفحول ص ٤٤٨ والنى : الشحم ، الصرى : اللبن يترك فى الضرع لا يحتلب ، كوماء : ناقة عالية السنام ، الصوى : يبس اللبن بعد تركه فى الضرع

ويقول العديل فى الفخر بتغلب وكانت أجارته أيام الحجاج :

ولِتَغلِبَ الغلباء عزٌّ بَيِّنٌ عاديَّة ويزيدُ فوق الكاهلِ
تسطو على النُّعمانِ وابنِ محرِّقٍ وابنَيْ قطامَ بعزة وتَنَاولِ
بالمقربات يَبِتْنَ حول رِحَالِهِم كالقِدِّ بعد أجلَّة وصواهلِ
أولادُ أعْوَجَ والصريحِ كأنها عُقبانُ يومِ دجُنَّة وتحايُلِ
يلقطن بعدُ أزومهن على الشبا علق الشكيم بألسن وجحافل[1]

ويقول الفرزدق والعجاج ويقول أبو النجم العجلى وغيره من الشعراء والرجاز ، فنجد فى قولهم هذا المَيْلَ الشديد إلى استخدام الألفاظ الغريبة وَبَثِّ الاصطلاحات المهجورة بينها . ويظهر ذلك سواء أكان خطابة أو محاورة أو مناظرة أو تقييداً لتاريخ أو تسجيلاً لعلم . ولقد ظهر بحق أن هذه الفنون قد هُيئَتْ لها الأسباب لتقوى ، وأن ما نقوله من أمر اللغة واضح ملحوظ ، وإلا فعلينا أن نعود إلى النقائض لنقرأ ما يضطر إليه الشرَّاحُ من تفسير أيام العرب ومايتصل بأيام العرب . وكان الذين يتحدثون هذا الحديث هم الأعرابَ الذين أخِذَتْ عنهم اللغة فيما بعد ، والذين عُرفوا بالفصاحة وبقوة العبارة . وربما استطاع مؤرخ الأدب العربى إذا درس ما خلفه ابنُ المقفع فى أدبيه الصغير والكبير وما كتب أصحابُ اللغة من الذين اشتغلوا بالأدب ونَقْدِه أن يحس الفارقَ بين عبارتين ؛ واحدة تتكلف روح العربية فأعوزتها البداوة . وواحده تنطق بها عن بداهة وأصالة فجاءت ممثلة للطبيعة البدوية الخالصة . واضْطر كثيرٌ من الأدباء إلى اصطناع الغريب وتكلف الخشن . فيحيى بن يعمر مثلا يثير الحجَّاجَ بأسلوبه الغليظ[2]، وكان عيسى بن عمر ، فصيحاً يتقعر فى كلامه ويعدل عن سَهْلِ الألفاظ إلى الوحشى « الغريب »[3] وكان

---

(١) الأغانى ٢٠ : ١٥ أجلَّة الإبل مسانها ، وجلَّت الناقة إذا أسنت ، والصاهل : من الإبل الذى تسمع لجوفه دوياً من عزة نفسه ، والأزوم : شدة العض على اللجام ، الشكيم : والشكيمة الحديدة المعترضة فى فم الدابة ، والجافل : أفواه الإبل

(٢) نزهة الألبا ٢١

(٣) نزهة الألبا ٢٦

نصر بن عاصم الليثى فصيحًا يفلق بالعربية تفليقًا ، وكان حماد بنُ سَلَمَةَ يُعْنَى بلغته فلم يكن هناك أفصح منه فى أيامه[١].

هكذا كان الشعور بالنسيج اللغوى قويًّا ، لعله جاوز القلم إلى المحاورة العادية ، فرؤبة يقول لذى الرمة بعد أن سمع منه قوله :

وعينانِ قال اللهُ كونا فكانتــا فعولان بالألبابِ ما تَفْعَلُ الخمْرُ

والله ما فَحَصَ طائرٌ أفحوصًا ولا تَقَرمصَ سَبُعٌ قُرموصًا إلا بقضاء من الله وقدر ! فيقول له ذو الرمة : والله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيايل ضرائك[٢] ! وعيسى بن عمر يهتف فى يوسف بن عمر بن هبيرة حين ضرب فى ثياب استودعها ولم يردها : إنْ كانت إلا أثيابًا فى أسيفاط قبضها عَشَّاروك[٣].

وكان الذين قد استعربوا قد ملئوا الآفاق ، وجاء عصر هشام فوجدنا عناية بالرسائل الفنية ، ورحنا نشهد فنونًا من النثر العلمى يتناول التاريخ وعلوم الدين وأمور السياسة ومسائل الكلام ، كما رحنا نشهد نثراً أدبيًّا وسياسيًّا موضوعه هذه الرسائل التى تعرض وجهة نظر الخلفاء والأمراء وتتحدث باسمهم ، وكلها لا يعوزها شىء من القوة والتطلع إلى البداوة . وربما تغير الأمر قليلا بعد ذلك أى بعد أن تَمَّ استعرابُ كثير من الأدباء ، فرأينا منهم تهاونًا فى عنايتهم باللغة ، وضَعُفَ شعورهم بالروح اللغوى السليم ، فأفسدوا تراكيب الجمل ، وجوزوا من أمورها ما أثار النحويين .

ونعود إلى الشعر ، فهو أكثر تمثيلا لما نريد ، وقد بلغت قوة الشعور بالنسيج اللغوى قصاراها فى محاولة الشعراء إرضاء رجال النحو . واستطاع الفرزدق على

---

(١) نزهة الألبا ١٧ ، ٥١

(٢) أمالى المرتضى ١ : ١٥ فحص الطير التراب : إذا اتخذ فيه أفحوصا ، وقرمص الرجل : دخل فى القرموص وهو حفرة واسعة الجوف ضيقة الرأس ، عيائل : واحده عيل كجيد وهو من يعال ، ضرائك : فقيرة كترائك .

(٣) نزهة الألبا ٢٧

كثرة حَمْلِ العلماء عليه أن يرضَيهم فكان يداخل الكلام[١] ويلجأ إلى الإعراب المُشْكِل ، وإلى التقديرات العَسِرَة والتقديمات المخلة بالمعانى[٢] فاعتده يونس بن حبيب فريد عصره حتى قال : « ما كان بالبصرة مُوَلَّد مثله[٣] » ، وكان إذا أخطأ طَلَبَ إلى النحاة أن يصلحوا خَطَأه حتى لا يكونَ ثمة عيبٌ ، ويضطرهم إلى أن يتأولوا ، فإذا ضاق وهجاهم عاد إليهم معتذراً[٤].

ولقد انعكس أثر هذه الظاهرة فى شعر النقائض بصفة خاصة ، فكانت فى الحق سجلاً لبعض مسائل النحو التى عرفت فى عصرها ، ولعل فى شروحها ما يؤيد قولنا وإلا فلنقرأ ما قيل فى التعليق على بيت جرير :

ذمَّ المنازلَ بَعْدَ منزلةِ اللوَى والعيشَ بَعْـدَ أولئك الأيـام

إذ يستخدم « أولئك » فى الإشارة إلى الجمع غير العاقل ، وقد اتخذه البغدادى فى خزانته شاهداً[٥]. ونقرأ أيضًا ما اتخذه شاهداً على أن « قال » فعل يتعدى إلى المفعول بنفسه إذا كان بمعنى ظَنَّ ، وهو بيته :

أبعدَ ابنِ ذيَّالٍ تقول مجاشعًا وأصحابَ ، عـوف يحسنون التكلما

ويشترط الشارح فى « قال » هنا أن يكون مضارعًا مسبوقًا بأداة استفهام[٦].

ونقرأ للفرزدق ذلك البيتَ الذى دفع الخليل وسيبويه إلى أن يقولا بجواز إلغاء عمل كانَ واعتبارها زائدةً ، والبيت هو :

فكيف إذا رأيت ديـار قَوْمٍ وجيران لنـا — كانوا — كرام[٧]

---

(١) الأغانى ١٩ : ١٥
(٢) خزانة الأدب ٢ : ٣٤٧
(٣) معجم الأدباء ١٩ : ٢٩٨
(٤) معجم الأدباء ١١ : ١٥٦
(٥) النقائض ٢٩٦ وخزانة الأدب ٢ : ٤٦٧
(٦) النقائض ٨٢ .
(٧) النقائض ١٠٠٤ والكتاب ١ : ٢٨٩

كما نقرأ قوله :

فيا عجبًا حتى كليبٌ تسبُّنى كـــأن أباها نهشلٌ أو مجاشع

فإذا هو شاهد على أن « حتى » تقال على الابتداء وتفيد التحقير ، وقد استشهد به سيبويه فقال : « حتى ها هنا ليست بمنزلة إذا ، وإنما هى ها هنا كحرف من حروف الابتداء »[١] .

على أنّ فى عناية النحويين بهذا الشعر — مهما يكن ما ظهر فيه مما لا يوافق قواعدهم — خير ما يدل على صلاحيته للوقوف فى صف واحد مع الشعر الجاهلى . فليس ينبغى بَعْدُ أن تَدْهَشَ حين تجد الخليل يقول قد مات رؤبة : دَفَنَّا الشعر واللغة والفصاحة اليوم[٢] .

ويتصل بالمبنى أخيراً الأوزان التى جرى بها شعر المقلدين ، وهى لم تخرج بأية حال عن الأوزان القديمة . هذا فى الوقت الذى حاول فيه شعراء الحجاز أن يتخلصوا منها بتشطيرها أو استعمال القصير منها . وقد ساء الكوفيين أهل الحجاز فى ذلك ومالوا إلى بعث الأبحر النادرة كالمديد والمنسرح[٣] .

وكما كان هناك جمود فى الأوزان حَرَصَ البصريون كذلك على القوافى ذات الرنين الغليظ والصدى القوى ، وسنرى أن المولّدين من بعدهم ينحون نحو الوليد بن زيد وشعراء الغزل فيرققونها ويختارونها لينة راقصة .

وندع المبنى إلى المعنى كما يفهمه القدماء لنرى دليلاً آخر على احتذاء شعر الجاهليين ، وإنما النَّمَطُ الجاهلى هنا فَرْضٌ على كل شاعر ، إذ « لا يصير الشاعر فى قريض الشعر فحلاً حتى يروى أشعار العرب ويسمع الأخبار ويعرف المعانى وتدور فى مسامعه الألفاظ »[٤] .

---

(١) النقائض ٦٩٩ والكتاب ١ : ٤١٣

(٢) الأغانى ٢١ : ٦١

(٣) راجع ما قاله الأستاذ كرنكو عن الطرماح فى مقدمة ديوانه ٢٧ (ط . أوربا)

(٤) العمدة ١ : ١٣١

ولم يكن أحد كالفرزدق أكثر رواية لأحاديث امرئ القيس وأشعاره سوى أبي شَقْمَقَل راويته[١] وقد اعترف بنفسه أنه تتلمذ على كثير من شعراء الجاهلية منهم النوابغ الثلاثة وأبو يزيد المخبل الذى وفد على البصرة وامرؤ القيس والحطيئة وعلقمة الفحل وطرفة بن العبد ومهلهل بن ربيعة والأعشيان وعبيد الأبرص ولبيد وأوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى[٢] برغم أن له شعراً يقول فيه إنه أحسن من هؤلاء !

وقد بلغ من تأثُّر الفرزدق بهذه التَّلْمَذَة أنْ ضُمَّ بعض شعرِ الأقدمين إلى شعره ، كما فعل فى أبيات للمخبل سرقها ، وكما فعل فى بيت للمتلمس هتك ستره فيه أبو عمرو بن العلاء[٣]، وكما ترى فى هذين البيتين اللذَين يستوقف فيهما صَحْبَهُ على الدِّمن :

وقوفًا بها صَحْبِي عليَّ وإنما عَرَفْتُ رسومَ الدار بعد التوهم
يقولون لا تهلك أسى ولقد بَدَتْ لهم عبرات المستهام المتيم[٤]

فهما مسلوخان من قول امرئ القيس :

وقوفًا بهـا صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل[٥]

وقول زهير بن أبي سلمى :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم[٦]

ومن هنا جاز للبعض أن يزعم أن أغلب شعره مسروق ، قال الأصمعي: « تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقه وكان يكابر ، وأما جرير فما علمته سرق إلا نصف

---

(١) الشعر والشعراء ٧٠
(٢) راجع ديوانه ٢٧٠ ، ٧٢١ من قوله :
وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول
(٣) الموشح ١١١
(٤) ديوانه ٧٥٥
(٥) شرح المعلقات للزوزنى ٥ (ط . الأزهرية سنة ١٣٤٤) .
(٦) شرح المعلقات ٧٤

بيت » ، وروى ابن دريد بيتًا نسبه جرير لنفسه وهو قديم وقيل له إنه « سرق كثيراً من معانى الفرزدق»[١] .

وفى عرض لما قاله الحجاج نرى كيف تأثر القدماء كغيره ، وانسحب هذا التأثر على أغلب المعانى سواء فى وصف البادية وحيوانها أو فى وصف الحرب وأدواتها أو فى غير ذلك من الفنون على ما سنرى بعد . وإذ كنا فى مقام لا يسمح لنا بتقصّى ذلك ، فإنما نؤثر أن نذكر بعض الأبيات كدليل على ما نقول :

ذكر القاضى الجرجانى أنّ القدماء شبّهوا الطلل المحيل بالخط الدارس والوشم فى المعصم فقد قال امرؤ القيس :

لمن طللٌ أبصـــرتُه فشجانى ... كخطّ زبور فى عسيب يمانى[٢]

وقال أبو ذؤيب :

عرفت الديار كرقم الدوا ... ة يزبرُها الكاتب الحميرىّ
برقم ووشى كما خـــرقت ... بميشمها المزْدهاةُ الهدِىّ[٣]

وقال المتنخل الهذلىّ :

عرفتُ بأجدُث فنعاف عرْق ... عـــلامات كتحبير النّمـــاط
كوشم المعصم المغتال عُلّتْ ... نواشـــره بوشم مُسْتَشَاط[٤]

فوصفوا على عادة الجاهليين الدمن الذاهبة بالوشم تارة والخط القديم تارة أخرى . وقد حرص الشعراء فى عصر التقليد على التمسك بذلك فقال البعيث :

ألا حيّيا الربعَ القَواءَ وسلّما ... وَرَبْعًا كجُثمان الحمامة أدهما
بصارةَ فالقَوّيْن لأيا عرفتُـــه ... كما عرف الحبْرُ الكتابَ المنمنما[٥]

---

(١) الموشح ١٠٥ ، ١٠٦
(٢) الوساطة ١٤٨ ، ١٥٠
(٣) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ والهدى : العروس ، والميشم : الإبرة .
(٤) ديوان الهذليين ٢ : ١٨ والمعصم المغتال : الممتلئ ، والنماط جمع نمط وهو ضرب من البسط.
(٥) نقائض طبعة مصر ٤٠ وصارة والقوان : من أسماء المواضع .

وقال ذو الرمة :

أأنْ ترسمتَ من خرقاء منـــزلةً كالْوَحْى فى مصحف قد محَّ منشور[١]

وقال رؤبة :

هـــل تبكينْك الدمنُ الدروس كـــأنهن الورق المطـــروس[٢]

ولكنهم — فيما أرى — قللوا من تشبيه الطلل بالوشم ، حتى إنَّ الفرزدق لم يأبه به على الإطلاق فى كل شعره ، وأما جرير فقد استهواه ربط الدمن بالخطوط الدراسة ، ومرة أو مرتين شبهها بالوشم قال :

كأن ديارَ الحىّ من قِدَمِ البِلى قراطيسُ رُهْبان أحالتْ سطورها
كما ضَرَبَتْ فى معصم حارثيةٌ يمانيـــةٌ بالوشم باقٍ نئورها[٣]

ثم هى عنده وَحْىُ زبور أو خط قديم فى قرطاس من عهد موسى ، أو حروف كالقاف والميم واللام[٤].

وإذا قال حاتم :

وإنى لعفُّ الفقرِ مشترك الغـــنى وتارك شـــكلٍ لا يوافِقهُ شكلى

قال جرير :

وإنى لَعَفُّ الفقر مشترك الغنى سريعٌ إذا لم أرْضَ دارى احتماليا[٥]

وذكر ابنُ قتيبةَ أن طَرَفةَ أولُ من طَرَدَ الخيال فقال :

فَقُـــلْ لخيـــال الحنظلية ينقلبْ إليها فإنى واصلٌ حبلَ مَنْ وَصَلْ

فقال جرير :

طرقتكَ صـــائدةُ القلوب وليس ذا وقتَ الزيـــارة ، فارجعى بسلام

---

(١) ديوانه ٢٧٧

(٢) مجموع أشعار العرب ٣ : ٧٤ (ط . ليبزج ١٩٠٣)

(٣) ديوانه ٢٦٦ والنئور : دخان الشحم أو حجر أسود

(٤) راجع ديوانه ١٩٣ ، ٣٥١ ، ٤٨٨ ، ٤٩٨

(٥) الوساطة ١٦١

كما ذكر — أى ابنُ قتيبة — أن رؤبة حين رأى أوس بن حجر يقول :

يرى الناسُ منا جِلدَ أسود سالخ وفروةَ ضِرغام من الأسْد ضَيْغَمِ

لَخَّصَ المعنى ولم يحسنْ تلخيصه فقال :

علىَّ أنمارٌ من اغتباطى كالحية المجتابِ بالأرقاطِ[1]

وأما خطاب الاثنين واستيقافهما على الأطلال وذِكرُ أحداق المها وعيرن الجآذر فأمور كان يجرى على اتباعها الجاهليون وقلدهم فيها فحول بنى أمية ، وسنكتفى بكل واحدة من هذه بشاهد حتى لا نطيل فى شىء أوضح من أن يحتاج إلى توضيح ، ففى خطاب الاثنين يقول جرير :

بان الشباب فودعاه حميدا هل ما ترى خَلَفًا يعود جديدا

يا صاحبىَّ دعا الملامة واقصدا طال الهوى وأطلتما التفنيدا[2]

ويقول مزاحم العقيلى :

خليلىَّ عوجا بى على الدار نسألِ متى عهدها بالطاعن المتجملِ[3]

وفى ذكر أحداق المها فى معرض النسيب يقول العديل :

وإذا جنان خدودهنَّ أرينا حَدَقَ المَها وأخذن سهم القاتل[4]

وفى تشبيه الحبيبة بعيون الجآذر يقول الفرزدق :

إن التى نَظَرَتْ إليك بفادرٍ نَظَرَت إليك بِمِثْلِ عينَىْ جؤذر[5]

ويرى القاضى الجرجانى أن إضافة الجآذر أو الغزلان إلى مواضع بعينها فى

---

(١) الشعر والشعراء ١٤٩ ، ٥٧٨ ، أى جلود أنمار .

(٢) ديوانه ١٦٩

(٣) الأغانى ١٦ : ١٥٣

(٤) الأغانى ٢٠ : ١٩

(٥) ديوانه ٤١٧

الشعر حَشْوٌ لا فائدةَ فى ذكره . على الرغم من وقوع ذلك فى شعر الأولين ، على نحو ما يقول امرؤالقيس :

تَصُدُّ وتُبْدِى عن أسيل وتتقى بِنَاظرة من وَحش وجرةَ مُطْفل

وما يقول عدى بن الرقاع من بعده :

وكأنهـا بين النسـاء أعارها عينيـه أحورُ من جآذر جاسم

وقال إنه رأى ظباء جاسم فوجدها لا تختلف عن غيرها من الظباء ، وقد سأل عن وحش وجرة فلم يذكر الأعراب له فضلاً عن الغزلان الأخرى[١] .

وأما القعودُ للبرق فقد كان مما يمتاز به القدماء ، ولا سيما هؤلاء البادون الذين تتوقف حياتُهم أكثر من سكان القرى على النوء . وامتاز شعر الهذليين بخاصة بهذه الظاهرة ، وقالوا هم فيها أروع شعر جاهلى ، يدل على ذلك شعرُ ساعدة بن جؤية وراويته أبى ذؤيب[٢] ولقد جرى على هذه العادة الشعراء الأمويون حتى الأولون منهم ، فقال ابن مفرغ :

سقى برق الجمـانة فاسـتطارا لَعَلَّ البرقَ ذاك يحور نارا
قعدتُ له العشاء فهاج شوقى وذكرنى المنـازل والديارا[٣]

وهكذا نرى أن الشعر فى هذا الزمان قد غَلَبَ عليه التقليد ، وسادته روح المحافظة ، فإذا هو فى مبناه ومعناه يحقق هذه المثالية التى استمدت عناصرها من الجاهليين ، وقد ساعده على ذلك شيئان هامان : حركةٌ رجعيةٌ قام بها اللغويون والنحويون ، وذوق فنى استمد مقوماته من الحياة التى كان يحياها أغلب الشعراء أو أكبرهم ، وكانت هذه الحياة فى الغالب بادية !

---

(١) الوساطة ٣٦ ، وفى ١٤٩ أن الشعراء قد يستعملون ألفاظاً جاهلية ولا يعرفون دلالاتها الدقيقة .

(٢) راجع ديوان الهذليين ١ : ٢ ٥ ، ١٢٩ ، ١٦٤ ، ١٧٢ ، ١٩٨ ، (ط . دار الكتب والوثائق القومية سنة ١٩٤٥) .

(٣) الأغانى ١٧ : ٦٩

بداوة الخيال وماديته :

على أن هذا وَحْدَهُ لا يكفى دليلاً على استجابة الشعر بهذه الصورة للذوق فى أثناء مرحلة التقليد ؛ فثمةَ جوانبُ أخرى نلمح فيها ضرباً ثانياً من ضروب التكيف . وأعرض هنا لما أشرتُ إليه قبلُ فى تمهيدنا . حول البعد والقرب عن دائرة الحس وعدتنا فيه كانت تفاصيل الصورة .

وعسيتُ فى غير حاجة إلى أن أعيدَ القَوْل فى استجابة الشعراء لتوجيه النقاد المحافظين ؛ فهؤلاء كانت دعوتُهم أكبرَ من عبقرية الشعراء ، فضلا عن أنهم كانوا يمثلون ذوق العصر . وقد عاش أهلوه عيشةً أقربَ ما تكون إلى عيشة الأولين ، ونريد هنا أن نعرض للصور الفنية لأنها فى الحق خير ما يدل على ذوق العصر .

ويمكن أن أقول بصفة عامة إنّ من أظهر ما يمثل عصر الفحول بداوة الخيال ، وبالتالى ماديته وقربه الشديد من الحواس ، وقد لا نتعجل الحقائق إذا قلت إنه كان يستمد أسباب نمائه مما كان متبعاً فى الشعر الجاهلى ؛ فالطلل المحيل يشبَّه بالخَطِّ الدارس أو بالوشم فى المعصم ، والظعن المتحملة تشبه بالنخل وعلائقها ، والرمح يشبه بمتن الذئب ، والجيش بالسحاب أو الجبل أو الليل ، والفحل بالفدن[1] المشيد ، والعقاب بالدلو التى خانها الدلاء ، وسرعة الناقة بعدو نيس وهكذا .

والشعراء يحرصون كذلك على وصف الحمول ومَوَرَان الإبل بها أو تعلق الحيّات بأرجلها ، ويكرهون الغراب وينعون عليه نعيبه . وهم يسألون المنزل عن أهله ، ويتفجعون لمن استبدل بعد ساكنه . بل قد يلومون النفس على بكاء الدار ، ويقسمون بالراقصات والهدى[2] .

---

(١) الفدن : القصر ، يقال جاءوا بأجمال كأنها أفدان أى قصور ، وجمل مفدن .

(٢) الراقصات : إبل يسار عليها إلى البيت الحرام ، والهدى : التى تهدى إليه .

وينبغى أن نلحظ أن هذه العناصر ذات جسم فى تكوينها ، وقدمنا أن البصريين لاءمهم الاتجاه المادى فى حياتهم إما لأنّ فيهم عناصر عربية تؤمن بالمادية منذ قديم . وإما لأن الحياة الاجتماعية والاقتصادية كانت تجبرهم على الأخذ بها ، ومن هنا لا نستكثر على ابن لجأ أن يقول فى إبِل له :

قد وردتْ قبل إنَى ضحائِهـا وتغرس الحيَّـاتُ فى خرْشائها
جرَّ العجوز الثَّنْىَ من ردائها[1]

ولا أريد أن أقف عند الألفاظ فى هذا الرجز ، فالبداء أهم ما يميزها لا سيما فى استعمال « إنى » و « ضحائها » و « خرشائها » ولا سيما فى كثرة ما تدل عليه وهى فى التركيب قلة . . لا أريد ذلك ، وإنما أريد أن أقول إن ابن لجأ التيمى كان ككثير من أبناء تميم ابنَ بادية بل « كانت تيم رعاء غنم فيغدون فى غنمهم ، ثم يروحون »[2] فكانت الصلةُ واضحةً بين حياته هو وحياة الأولين . وإذا قيل إن التقليد أصبح منبتًا فى هذه الحال ، قلتُ إن تَمَسُّكَ الشاعر بتفاصيل الخيال ربطه بالقدماء . إذ مهما يكن من أمر التشابه الواقع بين الباديتين — بادية تميم فى البصرة وباديتها فى شبه الجزيرة — فثمة تقاليدُ جديدةٌ وثمة أسبابٌ طبعيةٌ لا بد أن تكون تميم قد أصابت منها شيئًا ، وقد مرّ عليها فى موضعها الجديد قرابة قرن .

والحق أن الشعراء لم تكن تعجبهم هذه الحرفية ! نعم هم يأخذون الصورة فى جملتها ، ولكنهم كانوا يضْفون عليها من طبعهم ما تدل عليه التفاصيل ، وهذا الفرزدق الذى قيل فيه ما قيل والذى أنشد مرة مقسمًا :

حلفتُ برب الراقصـات إلى مِنى خِفافًا وأعناقِ الهـدىّ المُقَلَّد
لقـد ظلمتْ أيديكمُ غيرُ ظالم ولا لهـوان فى القيود مُقَوَّدِ[3]

---

(١) طبقات الفحول ٣٦٣ وأنى الشىء : يأنى إنى وأنى حان وقته ، والضحاء : الطعام يؤكل ضحى ، والخرشاء : جلد الحية ، والثنى : تضاعف الثوب .

(٢) طبقات الفحول ٣٧٢

(٣) ديوانه ١٦٥ ، ١٦١ ، ٦٦١ ثم ٦٧٩ و ٣٢٧ أيضاً .

ومرةً :

ولـــو أنني أسطيع سَعْيًا سعيتهُ إليكَ وأعناقِ الهـــدىِّ المقلَّدِ[١]

ومرةً :

حلفت بأيدى الراقصات إلى مِنًى تُجَرَّرَ فى الأرساغ منهـــا نعالُهـــا
لَتَطَّلعنْ منى بلالا قصيدةٌ طويلٌ بأفواه الرواةِ ارتجالُهـــا[٢]

الفرزدق الذى فعل ذلك فظهر كيف تَمَسَّكَ بالقديم ، عاب على ذى الرمة شدة تمسكه بتفاصيل القديم ؛ فقد روى أنه وقف عليه يومًا فى سوق الإبل بالمربد وهو ينشد شعراً يقول فيه :

إذا ارفضَّ أطراف السياط وهلَّلَتْ جُروم المطايا عذَّبَتْهُنَّ صَيْدحُ[٣]

فلما سأله رأيه أجاب : ما أحسن ما تقول ! فقال ذو الرمة : فما بالى لا أذكر مع الفحول ؟ قال : قصر بك عن غاياتهم بكاؤك فى الدِّمن وصفتك للأبعار والعطن[٤] . والفرزدق كما لا يخفى على أحد بكى فى الدمن ووصف الإبل وإن كان لم يطل ، وكذلك فعل جرير وغيره من شعراء هذه الحقبة .

والحق أننا نجد الفحول يتفاوتون فى الصدور عن الطبع والتفرد بما لا يكاد يعرف إلا لهم ؛ فذو الرمة مثلاً — على تأخره حتى قيل إنه ربع شاعر — له قدر من التشبيهات لم يقدر عليها غيره[٥] فضلاً عن بعض صور الدِّمن استحالت شيئًا جديداً عنده ، وإذا هو إلى جانب عناصرها القديمة من الآرى والأثافى السفع يصف أعضادَ المسجد المُهَدَّم فيقول :

قف العيس فى أطلال مية فاسأل رسومًا كأخلاق الرداء المسلســـل

(١ ، ٢) ديوانه ١٦٥ ، ١٦١ — ٦٦١ ثم ٦٧٩ و٣٢٧ أيضاً

(٣) صيدح هى ناقة ذى الرمة

(٤) الشعر والشعراء ٥٠٦ والموشح ١٧٣

(٥) الموشح ١٧١ ، ١٧٢

عَفَتْ غيرَ آرىٍّ وأعضاد مسجد وسُفْع مُناخاتٍ رواحلَ مِرْجل[١]

بل ينتهز فرصة استيقاف صاحبيه فيدعو لهما بالنعيم الخالد :

يا صاحبيَّ انظرا أواكما دَرَجٌ عال وظلٌ من الفردوس ممدود[٢]

وإن لم يكن ذلك فدعاءٌ كريم لهما ؛ كأن يقول :

خليلي عوجا بارك الله فيكما على دار مىٍّ من صدور الركائب
تكن عَوْجةً يجزيكما الله عنده بها الأجر أو تقضى ذمامة صاحب[٣]

أو يقول :

ولا زِلتما فى حَبْرة ما بَقيتُما وصاحبتُما يومَ الحساب محمداً[٤]

وجرير كذلك ، فقد استطاع أن يظفر بصورة ميزته حتى قيل إنه أنسب الفحول وأسبُّهم وأشبههم[٥] واعترف الأخطل بذلك فقال لمن سأله : جرير أنسبنا وأشبهنا[٦]. وهو على فرط تغنيه بالوقوف على الأطلال لم يلتق بالقدماء كثيراً فى تفاصيلهم ؛ فلم يذكر الأثافى السفع والنؤى وبعر الآرام فى كل شعره ، ولعله ذكر الشُّمام ومنصب الخيام مرة واحدة فى قصيدته المشهورة :

ألا حىِّ رَهْبَى ثم حىِّ المطاليا فقد كان مأنوسا ، فأصبح خاليا

وكان فى كثير من الأحيان يذكر الطلل فى بيت واحد فيقول :

أتعرِفُ أم أنكرتَ أطلالَ دمْنة بأثبيتَ فالجَوْنين بالٍ حديدُها

---

(١) ديوانه ٥٠١ ، ٥٠٢ والآرى : مربط الدواب ، أعضاد : جوانب ، وسفع : سود ، ونقول أثاف سفع ، والأثافى واحدها أثفية ، نقول : أثفت القدر وثفيتها ، وتأثفت القدر ، والشاعر سماها رواحل لأن المرجل يعلوها .

(٢) ديوانه ١٣٢

(٣) ديوانه ٥٤

(٤) ديوانه ١٢١ والملحوظ أن رجاز هذا العصر كانوا يستهلون بذكر الله فيقول أبو النجم : الحمد لله الوهوب المجزل ! ويقول العجاج : قد جبر الدين الإله فجبر (راجع الأغانى ٩ : ٧٣)

(٥) الأغانى ٧ : ٣٨

(٦) الشعر والشعراء ٤٣٧

وينتقل فى البيت التالى إلى التشبيب فيقول :

ليالىَ هنـــدٌ حاجةٌ لا تريحُنَا ببُخْل ولا جود فينفع جودُها[١]

وليس فى ديوانه كله إلا صورة واحدة يشبه فيها بقايا الدمن بالوشم، فى حين كان ذلك كثيراً فى شعر القدماء ، وغلب عليه تشبيه هذه البقايا بدارس الخط على ما يرى فى كتب الرهبان أحبار اليهود ، وقدمت أنه أغْرِمَ بتشبيه الطلل بوحى الكاف والميم واللام . ومن هنا نلمس إلى أىِّ مَدَى كانت حقيقة التقليد فى الصورة ؛ فهو يمس عند الكثيرين الخطوط العامة ، ويبعد فى أجزائها الصغيرة .

ويعنينا من ذلك كله أن الشاعر سواء أقرب أم بعُدَ عن الأولين ، كان ينزع منزعًا ماديًّا ، فاقتربت صُوَرُه كلها من أدوات الحس ، فالفرزدق يقول :

وإذا طُهيَّةُ من ورائىَ أصبحتْ أجَمُ الرّماح عليهمُ يتزعزع
حَوْضِى بنوعُدُس على مَسْقَاتِهِ و بنو شرافَ من المكارم مُتْرَع[٢]

وجرير يقول :

صبحناهمُ جُرْداً كأنَّ غُبارَها شآبيبُ صَيْفٍ يزدهيهنَّ حاصب
بكلِّ رُدينىٍّ تَطَارَدَ متنُــهُ كما اختبَّ سِيدٌ بالمراضين لاغب[٣]

والعجّاج يقول[٤] :

كأن تحتى كُندُراً كنــادرا ترى بِلِيتَىْ عُنْقِــه مَزَارِرا

ويقول فى فلاة[٥] :

كأنمــا نجومهــا إذْ بَدَتْ عُفْرٌ وثيران الصريم قد جَلَتْ

---

(١) ديوانه ١٥٦
(٢) ديوانه ٥٢٥
(٣) ديوانه ٤٤ والسيد : الذئب ، والمراضين : موضع فى المدينة ، تطارد : اهتز .
(٤) الشعر والشعراء ٥٧٣ والكندر والكنادر : يوصف بهما الغليظ من حمر الوحش .
(٥) مجموع أشعار العرب ٢ : ٦ وتقول ظباء عفر ، والعفرة : بياض تعلوه حمرة .

ويقول رؤبة ابنُه :

وجيـــدُ رئم واستعادت جـــؤذرا عينيه أو عينَىْ غزال أحورا
كأنما تحشُو الحِقابَ المُحْدرا قمراءُ رمل فوق رمل أقمرا[1]

وذو الرمة يقول :

ديـــار مَيَّةَ إذْ مىٌّ تساعِفنـــا ولا يرى مثلَها عُجْم ولا عرب
بَرَّاقة الجيـــد واللبات واضحة كأنها ظبيةٌ أفْضَى بها لبب[2]

فنرى فى أقوالهم هذه المادية المجتمعة ؛ فمجد الفرزدق حَوْضٌ ، وسيف جرير متن ذئب ، وناقة العجاج حمار ضخم من حمر الوحش ، وصاحبة ذى الرمة ظبية أفضى بها رمل ، وهكذا ! وقد لحظ القاضى أبو الحسن أنَّ مثل ذلك حظ مشترك تداوله الجميع فأصبح للجميع ، ولم يعد من الضرورى مثلاً أن يصحر القوم ليصفو الفلاة أو يركبوا النوق ليتكلموا عن سيرها ، إلا أنهم يتفاضلون : « بحسب مراتبهم من العلم بصفة الشعر ، فتشترك الجماعة فى الشىء المتداول وينفرد أحدهم بلفظة تُسْتَعذب أو ترتيب مستحسن أو تأكيد يوضع وضعه أو زيادة اهتدى لها دون غيره ، فيريك المشترك المبتذل فى صورة المخترع[3] حتى إذا قال جرير مثلاً :

سَرَى نحوكم ليلٌ كأن نجومَه قناديلُ فيهنَّ الذُّبال المُفتَّل[4]

مشبهًا الجيش بالليل ولمعان السلاح بالقناديل يجيد فيه حتى ليراه قوم أحسن بيت قالته العرب فى التشبيه[5] ويكاد الظن يغلب على تفرُّدِه به ، فإذا قرأنا بيت امرئ القيس الذى يذكر فيه البرق بقوله :

---

(١) مشارف الأقاويز فى محاسن الأراجيز ٨٣ (ط . ليبزج سنة ١٩٠٨) والحقاب : الردف ، والمحدر : الغليظ

(٢) ديوانه ٣ واللبة : موضع القلادة ، تقول امرأة واضحة اللباب

(٣) الوساطة ١٥٠

(٤) ديوانه ٤٥٦

(٥) الأغانى ٧ : ٥٠

يضيءُ سناه أو مصابيحُ راهبٍ أمالَ السَّليطَ بالذُّبالِ المُفتَّلِ (١)

لنا إلى ردّ عناصر الصورة الأولى إلى ذلك البيت ، والعلاقة واضحة بين المصابيح يضيء السليط ذبالها المفتل والقناديل يلمع فتلها . بل لقد اجترأ جرير فسلب امرأ القيس « الذبال المفتل » إلا أنه لم يقصر عنه ونقل صورته إلى النجوم فكانت أنسب ، ذلك أن وجه الشبه بينها وبين القناديل المضاءة أقرب مما هو بينها وبين لمعان البرق .

آثار الإحساس بالعصر :

على أن هذا العصر الفنى مهما نقل فيه فهو لم يكن دائمًا عالةً على تراث الجاهليين ، واستطاع أن يعطى صورة صادقة للأحداث التاريخية والاجتماعية التى تعرَّض لها إقليم البصرة . وأنا لا ألقى هذا القول جزافًا ، وإنما أقوله وقد أخذت آثاره بما سميته حساسية العصر !

ودرجة حساسية العصر — كما ينبغى أن أقول — مختلفة بين كل شاعر وآخر ، وهى إذا نظرنا إليها نظرة فردية كانت عبارة عن مقدار تجاوُب الشاعر مع عصره وكيفية ذلك . والتعميم فيها لا شك إنكارٌ لكثير من حقائق الفرد ؛ فإذا كنا نتخذها أداة للحكم على ذوق العصر فإنما بعد استقراء وإجماع ، فضلاً عن أنَّا نعلم أن الشعر ككل فن لا يؤرخ بالتاريخ السياسى بقدر ما يؤرخ بتطور الأذواق أو ما يتفق فيه الشعراء من هذه الأذواق .

ويستطيع كل من يقرأ شعر البصرة التقليدى أن يتبين خطوطًا ثلاثة عريضة رسمت تفاعلات الحياة بما فيها من تراث وقيم ، فثمة تفاعل بما كان ، وتفاعل بما هو كائن ، وتفاعل بما سيكون . الأول تاريخى يقف عند تمثل الشعراء لماضى أمتهم ، والثانى عصرى يحدد لحظات الحياة الواعية المتمثلة فى آثار الآخذين بها مباشرة ، والثالث بين هذه النزعات التى ترمى إلى التحرر من قيود

---

(١) شرح المعلقات ٣٨ ، والسليط : الزيت .

بعينها فى سبيل حياة أكثر مثالية وأقدر على توفير السعادة . ولست فى حاجة بالطبع إلى التنبيه على تشابك هذه الخطوط . وعلى أن تصنيفى لها لا يعنى فصلى لأسباب الحياة .

* * *

وفى الخط الأول نرى النقائض بالذات تلعب الدور الأول ، واضطر الشعراء فى أثناء تهاجيهم وتناظرهم إلى الكشف عن ماضيهم وتأثُّره وتعمُّقه حتى بعثوه بكل ما فيه من خير وشر . وإذا الشعر كله يعيش فى ظل الحسب والنسب ، وتنميه العصبيةُ ، وتمدُّه التقاليدُ القديمةُ والحكايات العتيقة بكل ما يعينه على الحياة ؛ وإذا شاعر كالفرزدق يدع القسم بالله — على ما رأينا — ويقسم بالهدى والراقصات وشاعر كالبعيث يؤمن بأن الكَلْبى لا يشفون حتى يسقوا دم الشرفاء فيقول :

فإنى امْرُؤٌ من آل بَيْبَـــةَ نابُه ... وَسَادَ بنى سفيانَ أولُهم قَبْلى
وَجَدتُ أبى من مالك حلَّ بيتَه ... بحيث تَنَصَّى كلّ أبيضَ ذى فضل
من الدارميين الذين دماؤهمْ ... شفاءٌ من الداء المجنَّة والخبَـل (١)

ولكن الفرزدق كان أوضح منه حين قال فى فائيته المشهورة :

ولو تشربُ الكلْبَى المراضُ دماءنا ... شَفَتْها وذوالداء الذى هو أدْلَفُ
من الفائق المحبوس عنـــه لسانُه ... يفوق وفيه الميِّتُ المتكتِّفُ (٢)

وأما جرير فيقفنا على جانب آخر من تَمَثُّل شعراء النقائض لماضى أمتهم فيقول :

أعائفنا ماذا تعيف وقـــد مَضَتْ ... بوارحُ قُدّام المطى رسُنَّح (٣)

ويقول :

إن الشواجع بالضحى هَيَّجْنَنى ... فى دار زينبَ والحَمَامُ الوُقَّعُ

---

(١) النقائض ١٣٧
(٢) ديوانه ٥٦٣
(٣) ديوانه ١٠٨ وكان الفرزدق كذلك يزجر الطير ، انظر على سبيل المثال ديوانه ٧٦٥

نعب الغراب فقلت : بَيْنٌ عاجل وجرى به الصردُ الغداة الأَلمعُ[١]

ويقول :

سقْيا لِنَهْى حمامة وحفير بسجال مرتكز الربَّاب مطير
سقْيًا لتلكَ منازلا هَيَّجْنَنِى وكأن باقيهنَّ وَحْىَ زبور[٢]

ويقول :

إذا طَرِبَ الحَمَام حَمَامُ نَجْد نَعَىَ جَارَ الأقارع والحُتَات
إذا ما الليلُ هاج صَدىَّ حزينا بكى جَزَعًا عليه إلى الممات[٣]

فيذكرنا بعيافة الطير وزجرها وبتشاؤم القوم بالغراب وبدعائهم بالسقيا وطلب الماء وبإيمانهم بخروج الصدى فى طلب الثأر[٤].

ولقد استطاعت العصبية القديمة أن تضع لبناتِها فى الشعر التقليدى كلّه . واستمدَّت العصبيةُ الجديدةُ حياتَها منها . وكان لتميم قَصَبُ السَّبْق فى ذلك إنْ عُدَّ مفخرةً لها ، ولكنها أحست ما تَرَدَّتْ فيه ، وإذا ماضيها بما فيه من فَخَار يشينها فتحاول أن توفق بين شعرائها ، قال أبو الغراف « مشت رجال تميمٍ بين جرير والتيمى وقالوا : والله ما شعراؤنا إلا بلاء علينا يثيرون مخازينا ويهجون أحياءنا وأمواتنا ؛ فلم يزالوا يمشون بينهما حتى أصلحوا بينهما بالعهود والمواثيق المغلَّظة لا يعودوا فى الهجاء»[٥] ، ولم يكن الفرزدق راضيًا

---

(١) ديوانه ٣٤١ والشواجع : الغربان ، والصرد : طائر أسود مشئوم

(٢) ديوانه ١٩٣

(٣) ديوانه ٨٤ وجار الأقارع هو الزبير

(٤) كان العرب يعتقدون أن المقتول إذا لم يطلب بثأره خرجت هامة من رأسه يقال لها الصدى تصيح : اسقونى . اسقونى ! ولا تسكت حتى يكون الثأر . وصدى المقتول فى البيت السابق للزبير وكان قتل بجوار مجاشع ، وقد ذكر جرير صدى آخر لمزاد بن الأقعس قتل ولم يأخذ بثأره بنو مجاشع بقوله : وبات الصدى يدعو عقالا وضمضما (راجع النقائض ٨٢ ، ٨٢٨)

(٥) طبقات الفحول ٣٧١

عن موقف التيمى من جرير ، ورأى أنه فضح قومه عن طريقه فأنشد يقول له :

وما أنت إن قَرْما تميم تسامَيَا أخا التَّيْم إلا كالوشيظة فى العَظْم

ويريد بقرمى تميم نفسه هو وجريراً ، ولكن ابنَ لجأ التيمى لم يعجبه ذلك فقال :

كذبت أنا القرْمُ الذى دقّ مالكًا وأفناءَ يربوعٍ وما أنت بالقرْم[1]

والواقع أنه لم يكن يريد إلا أن يقول إن عشيرته من تميم هى التى أذلّت مالكاً سلَفَ الفرزدق وأخلاطَ يربوع سلفَ جرير ، وذلك فى الجاهلية .

وقد ترتّب على ذلك بعث الحروب القديمة فى الشعر ، وتردد ذكرها فى النثر أيضًا . وإذا البصرة ومربَدها يضجّان بأخبار الأيام كإراب وأوارة الأول وأوارة الثانى ، والكلاب الأول والكلاب الثانى ، وشراحيل وأقرن والغبيط وغول وكنهل ، وفيف الريح ورحرحان والنسار . وكان الشاعر يفتخر بالنصر فيها ويعير بالهزيمة فيها خصمه ؛ فأوارة الثانى كان لعمرو بن هند ، ولكن عشيرة البَعيث ثأرت له بيوم طيئ فانطلق هذا الشاعر يقول :

ونحن حمَدَرنا طيئًا عن بلادها ونحن رددنا الحَوفزان مكلمًا[2]

وعيّر به جريرٌ خصْمه الفرزدق فقال :

ولسنا بذبح الجيش يوم أوارة ولم يستبحْنا عامرٌ وقنابله

عرَفْتم بنى عبسٍ عشيّة أقرنٍ فخُلّى للجيش اللواءُ وحامله[3]

ويوم أقرن الذى ذكره جرير فى البيت الثانى كان لعبس على دارم ، فعير به جرير خصمه . فنرى أن الشعراء لا يذكرون أيام تميم الداخلية فحسب ، وإنما يعدونها إلى الأيام الخارجية ، ويُعدُّ يوم جبلة من أعظم أيام العرب لعامر وعبس على تميم وذبيان ، فيه أسر حاجب زرارة الدارمىّ على يدى الرقيبة من

---

(١) الأغانى ٧ : ٦٧

(٢) النقائض ٤٥

(٣) ديوانه ٤٨٣

قيس ، فافتدى نفسه بألف بعير وأطلق لقيس مائة أسير ومنح العبسيين بما نالا من ثيابه مائة ناقة ، وقد استطاع الفرزدق أن يجد فى كل ذلك مفخرة له فقال يذكر حاجبًا :

وما علم الأقوام مثــل أسيرنا أســيراً ولا أجداثنــا بالكواظم

ولكن جريراً ردّ عليه هذا الفخر وعيّره بالأسْر وقرن به قتْل من قتل فى هذا اليوم كلقيط ، وفرار من فرّ كعمر بن عمرو الدارمى ، وقال :

كأنك لم تشهدْ لقيطًا وحاجبًا وعمرو بنَ عمرو إذ دَعوْا : يالدارم
ألم تُعط غصبًا ذا الرُّقيبة حكمَه ومنيةُ قيس فى نصيب الزهادم[1]

وحين افتخر غسان السليطى بقومه وكانوا فرسانًا قال فيهم جرير « لولا ما فعل ابن أم غسان لنشرت من أيام سليط ما لا يبيد جدّ الدهر » ومع ذلك فقد عيّره بقوله :

بئس الفوارس يوم نعفِ قشاوةٍ[2] والخيــلُ عاديةٌ عــلى بسْطام

وقشاوة من عشائر تميم نفسها ، لم يُغْنِ غسان أن يقول :

أيرجو جرير أن ينال مساعى الـ كرام بآبــاء لئام جُدودُهــا

وسقط ، وأخفى جرير من أيام قومه ما كان لايبيد جدّ الدهر لو نشره[3] .

وأرجو أن أمسك عن الاستمرار خوف الإملال ، وإن كنتُ لا أزال أشعر أننا فى حاجة إلى من يجرد نفسه للنظر فيها بعين التحقيق والنقد ، حتى يقيم من أكداس الحوادث وشتيتها لونًا من ألوان القصص التاريخى السليم .

فإذا عدونا إلى مسألة الأنساب والأحساب وجدنا عجيبًا ، وإذا الشعراء يتعقبون أجدادهم واحداً واحداً ، فيفتخر البعيث بنسبه المجاشعى ثم يصعد إلى

---

(١) النقائض ٣٧٩ ، ٤٠٩ وما بعدها ، وفى الديوان ٥٦٣ ، ٥٦٤

(٢) النعف : منتهى السيل من الوادى إلى أسفل الجبل.

(٣) نقائض (مصر) ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٣٠

دارم فى الأبيات التى ر يناها له فى ذكر الكلبى . ويتيه بحسبه تيه الفرزدق حين يذكر نسبه فيقول :

عمّى الذى اختارت معدٌّ فحكّموا فألقَوْا بأرسان إلى حَكَم عدل[١]

مذكراً إيانا بقول الفرزدق :

وعمّى الذى اختارت معدٌّ حكومة على الناس إذ وافوا عكاظا بها معا[٢]

وقوله :

كانت منادمة الملوك وتاجهم لمجاشع ، وسلافة الجريال[٣]

وقوله المشهور :

إنى وجدتُ أبى بنَى لىَ بيتَه فى دَوْحةِ الرؤساء والحكام[٤]

وجرير كذلك نحا هذا النَّحْوَ فافتخر بقومه بنى كليب وبأعمامه بنى رياح وبنى غُدانة وبنى ثعلبة وبنى سليط ويربوع ، وكان لانضمامه إلى قيس مادحاً إياها ما حدا به إلى أن يفخر بها كما افتخر بخندف .

ولم ينس شعراء هذه الفترة أخوالَهم فذكروهم ، وافتخروا بمجدهم الأول ، وظلت فيهم العادة القديمة التى نَسَخَها الإسلام حين نهى عن الحط من قدر المرأة . وإذا النسبة إلى الأم تتخذ سُبَّةً بخاصة إذا كانت الأم أمَةً فيقول جرير للبعيث :

أنبئت أنكَ يابنَ وردةَ آلفٌ لبنى حُدَيَّةَ مَقْعَداً ومقاما[٥]

وكانت وردة هبة من القعقاع لأبى البعيث فى حين كانت حدية أم بنى ذهل . وترددت صفة « اللؤم » عند كل الشعراء يريدون بها الخسة والهجنة ، قال

---

(١) النقائض ١٣٩
(٢) ديوانه ٥٠٢
(٣) نفسه ٧٢٧
(٤) السابق ٨٥٠
(٥) السابق ٥٤٢

أبو عبيدة : الهجين اللئيم الأمهات[١] أى من كانت أمُّهُ غير عربية !

قال غسّان يهجو قوم جرير ، فينفيهم عن العرب الخُلّص :

أما كليبٌ فإن اللؤم حالفَها ما سال فى حَفْلة الزباء واديها[٢]

وقال البعيث فى المعنى نفسه :

فكلُّ كليبيٍّ عليه علامةٌ من اللؤم تبدو حاسراً ومعمما[٣]

وزاد الفرزدق فدلّل على القوم بقوله :

ولو ترمى بلؤمِ بنى كليب نجوم الليل ما وضحت لسارى

ولو لبس النهارَ بنو كليب لدنس لؤمُهم وضَح النهار[٤]

وقد استطاع جرير أن يُحطِّم كلاًّ من البعيث والفرزدق عن طريق الأم الأولى . وذكر وردة كما رأينا ، وذكر كذلك جدة الفرزدق قُفيرة وهى أم صعصعة بن مالك وكانت من سبى قضاعة ، وقيل من سبى كسرى[٥] .

فقال فى البعيث :

فأين بنو القعقاع من ذَوْد فَرْتَنا وعن أصلِ ذاك القِنِّ أن يتقسما[٦]

وقال فى الفرزدق :

قُفَيْرةُ من قِنٍّ لسلمى بن جَنْدل أبوكَ ابنُها وابنُ الإماء الخوادم[٧]

وتوسّع فنَفَى بنى مجاشع عن العرب مستدلاًّ على ذلك ببعد شبههم عن الخُلّص ، وقال :

---

(١) النقائض ٤٠

(٢) نقائض (مصر) ١٦ والزباء : ماء لبنى سليط ، وحفلته : كثرته

(٣) نفسه (مصر) ٤١

(٤) ديوانه ٤٤١

(٥) النقائض ٢١٩ ، ٧٦٧

(٦) ديوانه ٥٤٤

(٧) نفسه ٥٥٨

ويريب مَنْ رَجَعَ الفراسة فيهمُ رَهَلُ الطفاطفِ والعظام تَخَرَّعُ[١]

وهكذا يسير التراث القديم فى الشعر الأموى فيرسم لنا جزءاً من الحياة على أساس أن ماضيها لا يمكن فصله عن حاضرها . وعلى الرغم من أنه لم يكن للشعراء إلا فضل الجمع والتنسيق ، فحسبهم أنهم حفظوا تاريخاً كاملاً لأمة قديمة . وإذا قيل إنّ خيال الشعراء وهواهم تدخلا فى عرضه ، ومن ثم لا يمكن قبوله إلا بعد تردد ، قلنا ليس يضير ذلك ما دمنا نصطنع فى درسنا الاستقراء والمضاهاة والمقارنة بما تقرر فى صحيح المأثور .

* * *

كل هذا يعنّ لنا فى عَرْضى لما حَدَّدَه الخطُّ الأول . وأما الخط الثانى فهو يحدد حياة العصر من حيث ما هو كائن أو موجود ، والأمر فى ذلك موكول ليقظة الشاعر إلى ما فى عصره . وأبدأ فأقول إن الذَّوْقَ العام كان لا يختلف كثيراً عن ذوق الجاهليين ، إما لأن مقومات الحياة البصرية كانت فى مجموعها شتيتًا من العادات والتقاليد الجاهلية ، وإما لأن تطور حياة الأمم يمضى فى العادة بطيئًا فلا يظهر أثر التغير إلا متأخراً ، وإما لأن الإسلام فى البيئة الجديدة لم يكن من القوة بحيث يستأصل القديم ، وإما لهذه جميعًا !

وكان من أثر ذلك أن دَبَّت الفرقةُ بين البصريين وأطلَّت العصبيات التى حاول الإسلامُ أن يقضىَ عليها ، ورجعت عادات الإجارة والمعاقرة والتحالف والنهب ، وأضيفت إليها شرورٌ أخرى نجمت عن الاتصال بالعَجَم ، حتى استشرى الشر . وقد رأينا أنه لا يكاد ينتصف القرن الأول حتى يكون زياد بن أبيه فى البصرة يهدر بخطبته البتراء ، فيفضح البصريين ويهتك أسرارهم[٢] .

وعلى الرغم من اصطناع زياد سياسة الحزم والشدة وأخذه المقيم بالظاعن والصحيح بالسقيم وإحداثه لكل ذنب عقوبة ، فإنه لم يستطع أن يقف تيار

---

(١) ديوانه ٣٤٤ والطفاطف : لحم الخاصرتين ، والتخرع : الضعف ، أى أنهم لا يشبهون العرب

(٢) راجع إلى جانب ما ذكرت تاريخ ابن الأثير ٣ : ١٩

الفساد ودعوى الجاهلية كما يقول . وإذا الشاعر مرة بن محكان وأبو البكراء السعديان يتباريان فى المناجزة والإطعام ، ويحبس مرة فيقول الأبيرد الرياحى لزياد :

فإن أنت عاقبت ابن محكان فى الندى فعاقب هداك الله أعظمَ حاتم

فيضطر إلى إطلاقه ، وهنا يذبح أبو البكراء مائة شاة فينحر ابن محكان مائة بعير[١] .

ويذكرنا ذلك بالفرزدق وبما كان ينحر ويهب ، ويروى أبو عبيدة أنه خرج من عند بعض الأمراء فى غداة باردة وأمر بجزور فنحرت ولم يَدَعْ أحداً إلا أعطاه ، وكان قد أغفل امرأة من بنى فقيم فعيَّرته فى رجز فلم يجد بدًّا من أن يهرب خزيًا منها[٢]! وكان القوم يعرذون بقبر أبيه فيجيرهم[٣] . وكان زياد يعرفه بحادثة وهب فيها ماله وثيابه فى المربد . فلما شكاه قوم إليه ذكروه بهذه الصفة[٤] .

وكان الفرزدق قد هرب من زياد حتى مات ، ولما رجع إلى البصرة علم أن مسكين الدارمى رثاه بقوله :

رأيت زيادة الإسلام ولت جهاراً حين فارقها زياد

فقال يهجوه :

أمسكينُ أبكى اللهُ عينيك إنما جرى فى ضلال دمعُها فتحدرا
أتبكى امرأ من آل ميسانَ كافراً ككسرى على عداته أو كقيصرا
أقول له لما أتانى نَعْيُه به لا بظبى بالصريمة أعفرا

فعاد مسكين إلى هجائه وخاف هو إن أجابه سقط فسكت عنه وأمسك[٥] .

---

(١) الأغانى ٢٠ : ٩
(٢) السابق ١٩ : ٣٧
(٣) نفسه ١٩ : ٣٦
(٤) النقائض ٦٠٨ وما بعدها وتاريخ الطبرى ٢ : ٩٥
(٥) الأغانى ١٩ : ٣٢

وتظل الحياة الجاهلية أكثر ما تظل فى حالات النهب والتحالف بين القبائل وتطبيق تقاليد الجوار ، فربيعة فى أيام عبيد الله بن زياد تغير على تميم ، وعلية بنت ناجية الرياحى يسلبها قومٌ خلاخيلها . وعبيد الله نفسه — على سطوته — يُنْهَبَ قبل هربه حتى ليفتخر واقد بن خليفة المنقرى بذلك فيقول :

يا ربّ جبارٍ شديد كلبُــه ... قد صار فينا تاجــه وسَلَبُهُ
منهم عبيد الله يوم نسلبُــه ... جيــاده وبزه وننهبــه[1]

وإذ تجدد ربيعة حلفها القديم مع الأزد يرى الفرزدق فى ذلك مطعنًا فيقول :

نزعنا وأمرنا وبكر بن وائل ... تجر خُصاها تبتغى من تحالف
فما بات بكرىّ من الدهر ليلة ... فيصبح إلا وهو للذل عارف

ويستجير عبيد الله بن زياد بمسعود الأزدى فتجيره زوجه فى غيابه ، وكان هو أسر ولم يطلق إلا بعد مضاعفة الدية . وقد افتخر شعراء الأزد بذلك كما افتخروا بإهدار دم تميم . فقال شاعر منهم :

قتلنا بقتلى الأزد قتلى وضوعفت ... دِياتٌ وأهدَرْنا دمــاءَ تميم
بعشر ديات لابن عمرو فَوُفِّيَتْ ... عيانا ولم تجعل ضمار نجوم[2]

وفى حركة ابن الزبير تردد الشعراء بين أن يكونوا زبيريين وأن يكونوا أمويين فلم يكن لهم من هنا عقيدة سياسية ؛ فهم زبيريون ما كان الأمر لآل الزبير ؛ وهم أمويون ما دام الأمر قد آل إليهم . وقد كان عبد الملك بن مروان يحرص على أن يدفع عن بابه كل مضرى من الشعراء لأنهم كانوا زبيرية . ولم يأذن لجرير بالدخول عليه إلا بعد أن شفع له الحجاج على لسان ابنه[3] ، وبين يديه قال مدحته المشهورة وسبّ فيها ابن الزبير وهجاه :

---

(١) النقائض ٧٣٢ ، ٧٣٥
(٢) نفسه ٧٤٢
(٣) الأغانى ٧ : ٦٢

ألستم خير من ركب المطـايا وأندى العـالمين بطون راح
وقـوم قـد سموتهم فدانُوا بيدَهْمٍ فى ململمـةٍ رداح
أبحتَ حمى تهامةَ بعد نَجْد وما شيءٌ حميتَ بمستبـاح
لكم شم الجبـال من الرواسى وأعظم سـيلِ معتلج البطاح
دعوتَ الملحـدين أبا خُبَيْب جماحًا هل شفيتَ من الجماح
فقد وجدوا الخليفـة هبرزِيًّا ألفَّ العيص ليس من النواحى[1]

وأبو خُبَيْب هو عبد الله بن الزبير وكان فى تهامة يوم قتل فاستباحها جيش عبد الملك .

وأما الفرزدق فقد افتخر بمقاتلة تميم عن مصعب بن الزبير ودعوتها إليه ، وأشاد بيوم الجفرة الذى تصدت فيه تميم لربيعة والأزد وكانتا تدافعان عن السلطان الأموى ، قال :

عجبتُ لأقوام تميم أبـوهمُ وهم فى بنى سعد عِرَاض المبـارك
وكانوا سَرَاة الحى قبل مسيرهم مع الأسْد مصفرًّا لحاها ومالك
ونحن نفَينا مالكًا عن بلادنا ونحن فقأنا عينـه بالنيـازك
فما ظنكم بابن الحوارىّ مُصْعَب إذا افترّ عن أنيابه غيرَ ضاحك
أبا حاضر إن يَحْضُر البأس تلقنى على سابح إبزيمه بالسنابك[2]

على أنه سرعان ما يتحول أمويًّا ، ويمدح يزيد بن عبد الملك ، ويهجو يزيد بن المهلب ، ثم يمدح غيره من الخلفاء ما كان راضيًا ، حتى إذا أحس بما يسىء قومَه سخط وهجاه . وديوانه يُعَدُّ بحق دفاعًا عن تميم ، فإذا كان يمدح غير تميم فى مدحه ولاة العراق من قيس أو الأزد صدر مدحه عن نفاق على ما لحظ شرقى ضيف[3] . وتكون ثورته الكبرى على هشام حين يُولى على العراق خالداً القسرى ويصحبه فى حجه على مضض ؛ فلا يكاد يأمر له

---

(١) ديوانه ٩٩ والهبرزى : الأسد ، والعيص : الأشجار الكثيرة ، من النواحى : من الأطراف
(٢) ديوانه ٦٠٠
(٣) التطور والتجديد ١١٦

بخمسمائة درهم حتى يقول فى هجائه :

يُقَلب عينًا لم تكن لخليفــة مشوَّهة حــولاء باد عيوبهــا[١]

وفى هذه الأثناء كان جرير إلى جانبه يهجو خالداً ، وكانت القيسية والتميمية كذلك تقفان ضد هذا الوالى .

ونحن إذا كنا قصرنا الكلام على موقف كل من جرير والفرزدق فلأنهما كانا خير من مثل موقف البصريين من السلطان الأموى ، ولأن غيرهما من الشعراء كان باهت الشخصية . بل لم يكن له اتجاه على الإطلاق ، ومثَّلَ الجانب السلبى من الحياة السياسية . فإذا انصرفنا إلى تحليل كل ما قيل — سواء أكان ذلك لجرير أم للفرزدق أم لغيرهما — لمحنا فيه صورة دقيقة من الحياة الاجتماعية والعقلية .

فعلى الرغم مما يقال من ضعف أثر الدين فى البصريين بحيث ظهر فيهم أكثر مَنْ رُمِى بالإلحاد فثمة رجاز وشعراء دوّت قصائدهم بأصوات الإيمان العميق ؛ ففى ترجمة « أبى النجم العجلى » نراه هو والعجاج يستفتحان رجزهما بالحديث عن الدين وشكر الله . فالعجاج يقول :

قد جبر الدينَ الإلهُ فجبر

وأبو النجم ينشد أجود أرجوزة العرب — كما يقول ابن قتيبة — أمام هشام فيصفق له ، وكان أولها :

الحمد لله الوهوب المجزل[٢]

وذو الرمة رأيناه يستوقف صاحبيه على الطلل ويدعو لهما بالفردوس ويذكر أعضاد المسجد بين ما يذكر من بقايا الدمن . فإذا رأيناه يقول :

---

(١) ديوانه ٥١

(٢) الشعر والشعراء ٥٨٤ وما بعدها ، على أنه يجب أن أقول إن نسبة أبى النجم للبصرة تعدل نسبته للكوفة ، ويبدو من أخباره أنه كان ينزل قرب المربد .

إذا انجلى البرقُ عنه قام مبتهلا لله يتلو له بالنَّجْمِ والطورِ[١]

ويقول :

يا مخرجَ الروحِ من جسمى إذا احتضرتْ
وفارجَ الكَرْبِ زَحْزِحْنى عن النار [٢]

ويقول العديل معه فى الحجاج :

بَنَى قبةَ الإسلام حتى كأنما
هدى الناس من بعد الضلال رسول[٣]

ومزاحم فى ابتهالة سمحة :

عجبت لربى عجبة ما ملكتها وربى بذى الشوق الحزين بصير
ليرحم ما أبقى ويعلم أننى له بالذى يسدى إلىّ شكور[٤]

والفرزدق لرجل استوهبه أعراض قومه :

ألم ترنى عاهدتُ ربى . . وإننى لبَيْنَ رِتاجٍ قائمٌ ومقام
على قسَمٍ لا أشتِم الدَّهرَ مسلما ولا خارجًا مِن فىّ سوء كلام
فررت إلى ربى وأيقنت أننى ملاقٍ لأيام المنون حِمامى[٥]

وجرير فى رثاء زوجه :

صلَّى الملائكةُ الذين تُخيروا والصالحون عليك والأبرار
وعليك من صلوات ربك كلما نصب الحجيج ملبدين وغاروا[٦]

إذا رأينا هؤلاء يقولون ذلك فيجب ألا نستبعد احتلالَ الدين نفوسَ الشعراء وقلوبَهم برغم ما كان فى بعضهم من فسق كالفرزدق . وقد يكون لواحد كالحسن

(١) ديوانه ٢٨١
(٢) الأغانى ١٦ : ١٢٣
(٣) السابق ٢ : ١٣
(٤) نفسه ١٧ : ١٥٣
(٥) ديوانه ٧٧٠
(٦) ديوانه ٢٠١

البصرى أثره فيهم ، إلا أن هذا كان واقعيًا . بل كان لا بد للشعراء من أن يصفوا الخلفاء بالتقوى والصلاح ، ويرموا مخالفيهم بالكفر والإلحاد ؛ فالفرزدق يمدح سليمان بن عبد الملك بالإيمان فى قوله :

أقــول لمغلوب أمــات عظامه ... تعاقب أدراج النجوم العوائم
إذا نحن نادينــا أَبَى أن يجيبنــا ... وإنْ نحن فَدَّيْناه غير الغماغم
سيدنيك من خير البرية فاعتدل ... تناقلُ نصّ اليعملات الرواسم
إلى المؤمن الفكاك كلّ مقيد ... يداه وملقى الثقل عن كل غارم[١]

وجرير يمدح عمر بن عبد العزيز بالهدى وعصيان الهوى وقيام الليل :

أنت المبــارك المهــدىُّ ســيرته ... تعْصى الهوى وتقــوم الليلَ بالسُّوَر
أصبحت للمنــبر المعمــور مجلسُه ... زينًــا وزين قبــاب الملك والحجر[٢]

والاثنان يقرءان القرآن فيتلوّن شعرُهما به ، ولكن فى دائرة محدودة وفى أبيات معدودة ، وقف عندها الشارحون محتفين بها ، ولسنا بحاجة إلى أن ننقلها هنا[٣] لأنها أضعف ما ظهر من حياة البصرة الاجتماعية فى الشعر ، ومن هنا لا نطمع أن نجد فى الأدب البصرى كثيراً من النزعات الصوفية . حقًا ظهر فى البصرة خلال القرن الثانى لون من التصوف قوامه التقشف دون ما إفراط ، غير أنه كان فى جملته فجًا بدائيًا باستثناء حالات نسائية خاصة كان فيها نتيجة للغريزة المثالية[٤] . وجود هذه الظاهرة على أية حال يتمشى مع نزعة البصريين المادية كما قدمنا . على أن هذا لا يسلب شعر الخوارج حظه من الدين ، وكان من غير شك كبيراً ، وكان أيضًا يتمشى مع مبادئهم التى قد نتعرض لها بَعدُ .

---

(١) ديوانه ٨٥١
(٢) ديوانه ٢٧٥
(٣) يمكن الرجوع إليها فى النقائض ١٨٢ ، ٥٥٢ ، ٣٤٤ ، ١٨٣ ، ٣٤٨ ، ٨٤٩ وفى ديوان الفرزدق ٦٩٧ ، ٨٥٣ ، ١٤١ ، ١٦٤
(٤) Le Milieu Basrien, P. 263.

وبعيداً عن تيار الدين وما يتصل به من فقه وما يقال من أن بعض الفحول تكلم عن نكاح سبية الحرب المتزوجة[١] وعن أثر الحلف لا مخرج منه[٢] نرى الشعراء يضطربون بين مذاهب المتكلمين فيغلب على بعضهم الأخذ بالجبر ويحاول بعضهم الآخر أن يكون قدرياً . وكان من رأى بنى أمية أن تسود الفكرة الأولى حتى لا يكون هناك اختيار . وحتى لا يكونوا مسئولين أمام أحد . وقد لا يغنى كثيراً مناقشة هذا الجانب الآن ، ولكنا نسرق هذا المثل التالى لنرى إلى أىّ حد كان الشعراء يؤمنون بمذهب عقلى معين ويتمسكون به . روى أن عنبسة النحوى سمع ذا الرمة يقول :

وعينـــان قال الله كونا فكانتـــا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

فقال له : هلا قلت فعوليْن ؟ فأجاب : لو قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر كان خيراً لك ! أى أنه أراد القدر «كن فيكون» وأراد عنبسة بـ « فعولان » أن يكون جبرياً[٣] .

ومهما يكن من شىء فإن الفحول لم يكونوا بعيدين عن العصر بأية حال . ولئن كان ماضيهم قد شغلهم عن حاضرهم ، فإنهم أحسنوا التعبير عنه حتى صار من السهل أن نجد فى شعرهم جوانب واضحة من الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية .

فإذا تقدمنا إلى شعراء الخوارج وجدنا صوراً رائعة لحياة القلق والاضطراب . وصوراً أروع للكفاح الصابر العنيد[٤] ، وربما رأينا بعض القصور عند طائفة من الخوارج . إلا أنهم يكشفون عن « إنسانية » برّة طيبة . ولقد روى أن أبا خالد القنانى كان ممن « قعد » من الخوارج . فلما سئل قال :

---

(١) الأغانى ١٩ : ١٤

(٢) النقائض ٧٥٤

(٣) الأغانى ١٦ : ١١٧ وفى أمالى المرتضى ١ : ١٥ نرى الرواية على نحو آخر .

(٤) سيكون عمادى فيما أذكر « باب من أخبار الخوارج » الذى عقده أبو العباس المبرد فى كتابه « الكامل » .

لقد زاد الحيـاةَ إلىّ حبًّـا بناتى . . إنهنَّ من الضَّعاف
أحـاذر أنْ يرين الفقْرَ بعدى وأنْ يشربْن رنقًـا بعد صافِ
وأن يعرين إن كُسىَ الجـوارى فتنبـو العـينُ عن كوم عجافِ
ولولا ذاك قد سوّمت مهـرى وفى الرحمن للضَّعفـاء كافِ
أبانا مَنْ لنـا إنّ غبت عنّا وصار الحىُّ بَعْدَكَ فى اختلافِ

وعلى الرغم من أن عمران بن حطان كان رئيس القَعدة من الصفرية ، فإنه كان يرى غير ذلك . ويروى أنه لما قُتل أبو بلال — وهو مرداس بن أديَّة — قال :

لقـد زاد الحيـاة إلىّ بغضًا وحبًّـا للخروج أبو بـلالِ
أحـاذر أن أموتَ على فراشى وأرجو الموت تحت ذُرَى العوالى
ولو أنى علمت بـأنّ حتْفى كحتْف أبى بـلال لم أبالِ

ويبدو أن أبا بلال كان أثيراً عند عمران ، فإنه ما فىْ يذكره ، وقال يرثيه :

يا عينُ بكِّى لمرداسٍ ومَصْرَعِهِ يا ربِّ مرداسَ اجعلْنى كمرداس
تركتنى هـائمًا أبكى لمُرزِئتى فى منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدكَ مَنْ قد كنت أعرفه ما النَّاسُ بعدَك يا مرداسُ بالناس
إما شربتَ بكأسٍ دار أولهـا على القرون فذاقوا جرعة الكاس[1]

وأخبار عمران طريفة فيها من المخاطر ما يثير ، وفيها من الصبر على عداء الدولة ما يكشف الكثير عن خلق الخوارج . وكان الحجاج قد طرده ، فظل يتنقل فى القبائل وينتسب إليها ، وهذا يفسر قوله :

نزلنـا فى بنى سعدِ بن زيدٍ وفى علكٍّ وعامرِ عَـوْشـانِ
وفى لخم وفى أددٍ بنِ عمرو وفى بكر وحىِّ بنى الغُدَانِ

حتى إذا انتهى إلى الأزْد أنشأ يقول :

---

(١) مرزئتى : كارثتى ومصيبتى .

نزلنـــا بحمْـــدِ الله فى خيْرِ منزلٍ
نُسَـــرُّ بما فيـــه من الأنْسِ والخفرْ
نزلنـــا بقوم يجمـــع اللهُ شَمْلَهُم
وليس لهم عودٌ سوى المجد يُعْتَصَرْ
من الأزْد . إنّ الأزْدَ أكرمُ معشرٍ
يمـــانيـــة طابوا إذا نُسبَ البشرْ
فأصبحتُ فيهم آمنـــا لا كمعشَرٍ
أتَوْنى فقالوا : من ربيعةَ أو مُضَرْ[1]
أم الحىُّ قحطانُ ؟ فتلكم سفاهـــةٌ
كما قال لى رَوْحٌ وصاحبُـــه زُفَرْ

ويقابلنا الصَّلَتان العبدى ، فيقرر فى صراحة مطلقة أنّ الأمة تَوَزَّعَتْ فعلا إلى طوائف . مع أنها مسلمة ، ومن واجبها أن تجتمع :

أرى أمَّةً شَهَرَتْ سيْفَهـــا وقد زيد فى سَوْطها الأصبحى
بنجـــديَةٍ . . وحَرُوريَةٍ وأزرقَ يـــدعو إلى أزرق
فملَّتُنـــا أننـــا المسلمونَ على دين صِدّيقنـــا والنبى

ولعل ذكْرَ الصلتان لسوط الأصبحىّ — وهو ذو أصبح الحميرى الذى اشتدت وطأة عقابه — يقفنا على مَدَى عمْق المأساة . ولكن هذا لم يكن يمنع الأزارقة — مثلاً — من أن يحيطوا بالبصرة ويشددوا عليها النكير حتى « ترحل أكثر أهلها وكان الباقون على الترحل ، فقلد المهلب حربهم فهزمهم إلى الفرات» .

وبعد ، فنحن نرى أن شعراء هذا العصر — واقفين كانوا مع الحكومة

---

(١) روح هو روح بن زنباع الجذامى مسامر عبد الملك بن مروان ، وكان يعتمد على عمران فى التثبت من الشعر والغريب . وأما زفر فهو زفر بن الحارث الكلابى الذى نزل عنده عمران فيمن نزل !

أم مناوئين لها — لم يقدموا لها نتاجهم التقليدى بارداً ، وإنما قدموه منفعلاً ببعض الأحداث .

* * *

وأما ما يمكن أن يقال عن الخط الأخير فى حساسية العصر فليس كثيراً . حتى إنه يبدو لأول وهلة أن الشعراء لم يكن لهم هدف لمستقبل يستهدفونه ، وأنهم شُغلوا بالماضى عن تكوين الصورة المُثْلى لحياتهم . فعجز الباحث عن تبين الأمل أو تحديد معالم المدينة الفاضلة ، بل ربما حاول بعض الشعراء أن يرغبوا الناس عن الدنيا فيقول واحد كعمران بن حطان :

فَمَنْ يكُ همُّــه الدُّنيا فإنى لها والله — ربِّ العَرْشِ — قالِ[1]

وإذا حاولنا أن نردّ هذا الاتجاه إلى نزعة خارجية . فإنا لا نستطيع ذلك مع أبى الأسود إذ يقول :

أيهــا الآمل ما ليس لَــهُ ربمــا غــرّ ســفيهًا أمــله
رُبَّ من ماتُ يُمَنّى نَفْسَهُ حالَ مِن دون مُناهُ أجله[2]

فيلتقى مع هذا الراجز الذى يرجز قائلاً :

مَنْ عاشَ دَهْراً فَسَيَأتيه الأجَــلْ
والمرء توّاقٌ إلى مــا لم يَنَــلْ
المــوتُ يتــلوه ويُلهيــه الأمــلْ[3]

ولكن الصلتان العبدى — وهو من البصرة — يحاول أن يكون أكثر قربًا من واقع الحياة . فيقرر أن ثمة حاجات لاتنى تعيش ما دام صاحبها يعيش :

إذا ليــلة هَرَّمتْ يَومَهــا أتى بعــد ذلك يومٌ فَتَى
نروح ونغــدو لحــاجاتِنــا وحاجةُ مَنْ عاش لا تنقضى

---

(١) الكامل ٢ : ١٠٨

(٢) العقد الفريد ٢ : ١٢٥

(٣) البيان والتبيين ٣ : ١٧٢

تمـــوت مـــع المرءُ حاجاتُه وتَبْقَى له حاجـــةٌ مـــا بقى[١]

ولقد كان الصَّلَتَان معاصراً لجرير والفرزدق ، وقيل إنهما احتكما إليه بشعرهما وَحَسَّبَهما ، ففضَّل الفرزدق . وهو إذا كان فتح باب التأميل أمام الأحياء فإنهما لم يفعلا وقد كانا فى الطليعة . بل لعل جريراً كان أكثرَ من مثل السلبية والتمشِّى مع الأوضاع ، حتى ليعلن فى صراحة أنه راض عن كل مَنْ يمدُّ يَدَهُ بالعَوْن إلى قومه :

سَنَشْكُرُ مَنْ له أثرٌ علينـــا كآثارِ الولىِّ على العِهـــاد[٢]

وإذا كان الراعى مثله يعلنُ أنه بعيد عن الظنة كاره للخوارج مطيع للخليفة . . .

إنى حلفت عـــلى يمين بـــرة لا أكذب اليوم الخليفة قيـــلا

فإنه لا يتردد فى أن يجأر بالشكوى أمام عبد الملك بن مروان ، ويبعد فيطالب بدفع الظلم قائلاً :

إن السعاة عصوك يوم أمـــرتهم وأتوا دواهى لو علمت وغولا
أخذوا العريف فقطعوا حيزومـــه بالأصبحيـــة قائمًا مغـــلولا
إن الذين أمـــرتهم أن يعـــدلوا لم يفعـــلوا ممـــا أمرت فتيـــلا
أنت الخليفة عدله ونـــوالـــه وإذا أردت لظـــالم تنكيلا
فادفع مظـــالم عيَّلت أبنـــاءنا عنـــا وأنقذْ شِلْوَنا المأكولا[٣]

والقارئ لهذه الأبيات يلحظ أن الشاعر ندب نفسه محاميًا عن قومه ناقداً عمال الخليفة ، وهو فى ذلك يقترب من كثير من شعراء عصره ولا سيما الفرزدق . إلا أنه تقدم خطوة أخرى حين أعلن أن قومه ينتظرون عدل الخليفة وفى حاجة إلى الإنصاف ؛ إذ ليس من حق السعاة أن ينكلوا بعريف قومه فيقطعوا وسطه

---

(١) ديوان الحماسة ٢ : ٥١ والكامل ٢ : ١١٨

(٢) ديوانه ١١٧ والولى : المطر ينزل بعد العهاد : والعهاد : أول مطر ينزل على الأرض .

(٣) الكامل ٢ : ١١٨ ، ١١٩ وجمهرة أشعار العرب ٣٥٥

ضرباً بالسياط ، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أنه يسعى لتحقيق مثل كثيراً مانشده لأقوامهم الزعماء المخلصون .

وحاجة الناس إلى العدل ظاهرة طبعية فى عصر يعتمد على القوة ، حتى إذا حاول عمر بن عبد العزيز أن يخفف عن الناس بعض ما يثقل به عليهم أمراء دولته ، يخفق أو على الأقل ينجح نجاحاً محدوداً لا يكاد يذكر ، وإذا رجلٌ يقوم إليه وهو على المنبر فيهدر قائلا [١] :

إنّ الذين بعثتَ فى أقطارها ... نبذوا كتابك واستُحل المُحرم
طلس الثياب على منابر أرضنا ... كلٌ يجوز . . وكلهم يتظلّمُ
وأردتَ أن يلى الأمانةَ منهم ... عدلٌ وهيهات الأمين المسلمُ

والشاعر يعلن يأسَه من وجود المسلم الذى يحمل أمانة الخليفة ويحكم بين الناس بالعدل ، وهو إذا كان أقل صراحة من الراعى فإننا لا نشك فى حماسته وحرصه على تحقيق ذلك الأصل الذى يعمل من أجله كل مصلح له رسالة .

وإذا كان الأمر يُحَدَّدُ بهذه الدائرة فإننا نرى الفرزدق خَيْرَ مَنْ صال فيها وجال ، وكان قد اعْتَدَّ نَفْسَه سيّدَ تميم والمدافعَ عنها والناطق باسمها ، يقول :

أنا ابنُ تميم والمحامى الذى به ... تُحامى إذا عرْبٌ تفرى أديمها [٢]

ويقول مخاطباً جريراً :

منعتُ تميماً منكَ إنى أنا ابنُها ... وراجلُها المعروفُ عند المواسم
أنا ابن تميمٍ والمحامى وراءها ... إذا أسلم الجانى ذِمار المحارم [٣]

كما يقول :

أنا الضامنُ الراعى عليهمْ وإنما ... يُدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى [٤]

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٩٢ وطلس : جمع أطلس وهو الثوب المغبر إلى سواد ، كناية عن عدم العفة .

(٢ ، ٣ ، ٤) ديوانه ٨٢٠ ، ٨٥٧ ، ٧١٢

وكنا نطمع والحال هذه أن نجده يرسم لقومه حياة مثالية أو يبنى لهم مجتمعاً يحقق لهم الحياة التى تتناسب مع شرفهم ، ولكنه لا يفعل ويكتفى بالتقريع . ولكأنه كان يطمع فى حِلْم معاوية قبل أن يقول :

فما بالُ ميراث الحُتات أكلتَه ... وميراثُ حرب جامدٌ لك ذائبه
فلو كان هذا الحُكْمُ فى جاهلية ... عرفتَ من المولى القليلُ حلايبه
ولو كان الأمر فى غير ملككم ... لأديته أو غَصَّ بالماء شاربه
ولو كان إذْ كنا وللكفّ بسطةٌ ... لصمم عضبٌ منك ماض مضاربه[1]

والأبيات شديدة كما نرى ، وهى فى قوتها تتفق وطبيعةَ الشاعر ، وكان لم لم يرضه أن يَحرمَ معاوية الحُتات المجاشعىّ كامل عطائه فقال هذا الاحتجاج العنيف . ولقد كان يأبى كل وضع تأباه تميم ويحاول أن يهدِمَه ، والرواة يرون أن عمر بن هبيرة لما ولى البصرة والكوفة أسرع الفرزدق يحتج لدى يزيد بن عبد الملك بقوله :

أميرَ المؤمنين وأنت والٍ ... شفيقٌ لست بالوالى الحريص
أأطعمت العراق ورافديه ... فزاريًّا أحَذّ يدِ القميص
ستحمله الدنيئة عن قليل ... على سيساءَ ذِعلبة قموص[2]

ويمكن أن نقول إنه لا يزال ككل شعراء عصره يطمع فى أن يكون هناك عدل ؛ فمعاوية الذى أكل مال الحُتات المجاشعى ظالم ، ويزيد بن عبد الملك يؤمِّر ظالمًا ، والتهمة فى الحالين سوء تدبير المال ، والرغبة فيهما الإنصاف !

على أن الفرزدق يَدَعُ الشكوى أحيانًا ويترك النَّعىَ على جباة الضرائب وذكر قسوتهم[3] وينصرف إلى القوم داعيًا إلى الاتحاد فيقول مرة :

---

(١) ديوانه ٥٦

(٢) ديوانه ٤٨٧ وفى الأغانى ١٩ : ١٧ الرواية باختلاف يسير ، والسيساء : أصله للحمار وهو موضع منسجه ، وذعلبة : ناقة سريعة ، وقموص : التى تضرب بأرجلها نافرة ، وإنما هذا مثل أراد به أن فعله سيحمله على مركب صعب .

(٣) راجع على سبيل المثال ديوانه ٣٥٢ ، ٦٨٢ ، ٧٩١

أجِدوا على سـير النهار وليله فلن تدركوا حاجاتكم بالتفرد[١]

ومرة أخرى :

إن تجمعوا أمركم تصلح خلافتكم وفى الجماعةِ ما يَستَمسِك العمد[٢]

ومهما يكن من أمر هذه الأبيات فإنها قليلة بالنسبة إلى ديوانه الضخم ، وظل الفرزدق ذلك الشخص الذى قنع بما وصل إليه ، ولم ينصرف إلى سواد الشعب ، ولم تنتفع الجموع بجاهه العريض وسلطانه الفنى ، فافتقد شعره هذه الإشارات التى تشير إلى المستقبل فى صراحة وقوة وفى إلحاح لا سبيل إلى التخلص منه .

والواقع أن نظرة عجلى إلى شكاته وإلى شكاة جرير والراعى وشكاة غيرهما من ضيق ذات اليد وسوء مسلك الجُباة ، هذه النظرة تكشف لنا عن مدى حاجة مدينة كالبصرة إلى تغيير شامل فى حياتها ، وإلى منقذ يخلصها مما هى فيه من فساد وشر ، وإلى تغيير هذه النغمة الواهنة التى تبعث فى النفوس استكانة :

وإنما أنا إنسـان أعيشُ كما عاشت رجالٌ وعاشت قبلها أمم[٣]

ولم يكن شعراء الجماعات الحزبية فى الحق ترضى عن قول المغيرة الحنظلى السابق ، لأنهم لم يكونوا يطمعون فى مثل ما طمع هو فيه من المهلب حين قال ذلك البيت . ولم يكونوا كذلك كجرير يكتفون بالشكوى أو كالفرزدق يعنفون فى احتجاجهم ، وإنما رسموا لهم سياسة هلكوا فى سبيلها فى أكثر الأحيان .

فحيان بن ظبيان يتزعم أمر الخوارج بعد مقتل عبد الله بن وهب الراسبى بالنهروان ويروح يحث أصحابه على حرب الطغاة لأن الهدف هو الاستشهاد فى سبيل الله :

(١ ، ٢) ديوانه ١٦٢

(٣) الكامل ٢ : ٢٥٠

خليليَّ ما بى من عزاء ولا صبر ولا إرْبةٍ بعد المصابين بالنهر
سوى نهَضاتٍ فى كتائبَ جمَّةٍ إلى الله ما تدعو وفى الله ما تغرى[١]

ويقول أبو بلال مرداس بن أدية التميمى كذلك عقب مقتل هذا الزعيم :

أبعد ابن وهبٍ ذى النزاهة والتقى
ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أحبُّ بقاءً أو أرجَّى سلامةً
وقد قتلوا زَيْدَ بنَ حصنٍ ومالكا
فياربِّ سلِّم نيتى وبصيرتى
وهبْ لى التقى حتى ألاقى أولئكا[٢]

غير أن الاستشهادَ لم يكن كل شىء فى حياة الخوارج . فثمة مُثُلٌ يريدون تحقيقها فى حياتهم ؛ فعمران بن حطان يدعو إلى دنيا قوامها المساواة لا سيما أن ولاية الإسلام عملت على التقريب بين الغرباء . والمؤمنون على كل حال إخوة :

فتحن بنو الإسلام والله واحدٌ وأوْلى عباد اللهِ بالله من شكر

وكأننا نحس أنه يطرق المعنى الذى طرقته الآية الكريمة : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم[٣] » . ولأجل ذلك لم يعجبه من شعراء عصره أن يقولوا فى الناس ما ليس فيهم ، وأنكر على الفرزدق مدحه وقال له :

أيها المادحُ العباد ليُعْطى إن لله ما بأيْدى العبَادِ
فاسأل الله ما طلبتَ إليهمْ وارجُ فَضْلَ المُقَسِّم العواد
لا تَقُلْ فى الجواد ما ليس فيه وتسمى البخيل باسمِ الجواد[٤]

---

(١) الطبرى ٢ : ١٢
(٢) الكامل ٢ : ١٥٦
(٣) راجع الكامل ١١١ ، ١١٥
(٤) الأغانى ١٦ : ١٥١ وفى الجزء السابع منه نسبت للسيد الحميرى .

فقال الفرزدق : لولا أن الله شغل عنا هذا برأيه للقينا منه شرًّا !

على أن قطريّ بنَ الفُجاءة كان خير من مثل الخوارج ، وهو إلى جانب تعبده يميل إلى الجهاد بعكس عمران بن حطان ، حتى لقد هاله أن يندّ ابنُ جعد الخارجي ليصير نديمًا للحجاج[1] ، وقد أرسل إليه يعاتبه ويغريه بالمثل التي يحاول الخوارج أن يحققوها فيقول فيما يقول :

لشتّـــان ما بين ابن جَعْد وبيننا ... إذا نحن رحنا فى الحديد المظاهر
فَسِرْ نحونا تلق الجهـــاد غنيمة ... نفـــدك ابتياعًا رابحًا غير خاسر

ولما عزَفَ ابنُ جعد عن الحجاج أنشأ يقول :

فأقبلت نحو الله بالله واثقًـــا ... وما كربتى غـــير الإله بفارجِ
إلى عصبةٍ أمـــا النهارُ فإنهم ... هم الأسْد أسْدُ الغيل عند التهايُج

فإذا أضفنا إلى ذلك كله بيتى قطرى التاليين :

ومن لا يغتبط يسأمْ ويهـــرمْ ... وتُسْلِمْه المنـــونُ إلى انْقطاعِ
وما للمـــرء خيْرٌ فى حيـــاة ... إذا ما عُدّ من سَقَط المتـــاعِ

وجَدْنا أنّ شِعرَ الخوارج فى جملته لا يعدو وصف مثالهم بدنيا قوامها حياة تجمع بين السمو والفروسية والدين ، وإلا فالموت إذا أصبح المرء منهم من سقط المتاع !

وندع خوارج البصرة إلى شيعتها فلا نرى الأمر يختلف كثيراً ، وإذا شعراء بنى هشام يشاركون فى الدعوة كخير ما تكون المشاركة . وإذا كان بعضهم يخفون ثورتهم على الأمويين وعلى الزبيريين اتّقاء للهلكة فإنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من فكرة الرجعة وفكرة المهدى المنتظر ، وهو الإمام الذى يعود بعد موته ليملأ الأرض عدلاً .

ولقد كان الفرزدق أحد الذين اتخذوا التَّقِيَّة ستاراً لضعفه ، فنجح فى

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٧٦ وضم قطرى إلى أدباء هذه الفترة من قبيل التوسع ، فإن معظم حياته وقع مع جيل ما قبل الفحول !

إضمار حب الشيعة وامتدح من امتدح من الأمويين دون إيلام للهاشميين ، حتى إذا ساءت علاقته بهشام بن عبد الملك خلع عنه تقيتَه وهجا الخليفة ورهطه حتى حبس .

وعلى الرغم من ذلك كله فإنه وجد من تميم عضداً . إذ كان شعوره هذا كفيلاً بإثارة الناس عليه . ولقد كان أبو الأسود شيعيًّا — كما رأينا — ولكنه كان يلقى عَنَتًا من أهل البصرة لمذهبه وكثيراً ما رجم داره ليرجع عن رأيه[١] . وقد أشبد الفرزدق السيد الحميرى[٢] فى أنه لم يصبه ما أصاب أبا الأسود . وظل السيد مخلصًا للهاشميين مَدى الحياة مؤمنًا بما نادى به أصحاب ابن الحنفية بشأن المهدى المنتظر على ما سنرى بعد[٣] .

ولسنا نستطيع أن نمضىَ مع الشيعة طويلا . لأن أغلبهم كان كوفيًّا ، فإذا عَدَوْناهم إلى الموالى لا نكاد نعثر على دعوة صريحة إلى العالم الذى يفضلون . لأن سلطان الأمويين كان — إذ ذاك — من القوة بحيث لم يهيئ لهم الفُرَصَ الكبيرة للإعلان عن رأيهم . والشعر الذى وُجِدَ فى ذلك الحين إنما كان فى معظمه هجاءً وفخراً ، واستطاع الفرس خارجَ البصرة — وبمعونة العلويين — أن يلعبوا دورهم فى قَلْب نظام الحكم . ولما لحظَ نَصْرُ بنُ سيَّار نشاطهم ، أرسل يحذِّر الخليفة فى دمشق ، حتى لقد قال عنهم ذات مرة لهشام فى شعر :

فَمَن يكُنْ سائِلاً عن أصل دينهمُ
فإنَّ دينهمُ أن تُقْتَلَ العربُ[٤]

فيلخص الفكرة العامةَ للشعوبية التى تطمح فى زوال مُلك العرب وفى عودة السلطان القديم إلى قوته .

---

(١) نزهة الألبا ٧

(٢) نذكر الحميرى هنا استطراداً ، وقد عاش حياته مع مخضرمى الدولتين ، فجعلناه من عصر التجديد .

(٣) راجع مؤقتاً الأغانى ٧ : ٤

(٤) العقد الفريد ٣ : ٢٦